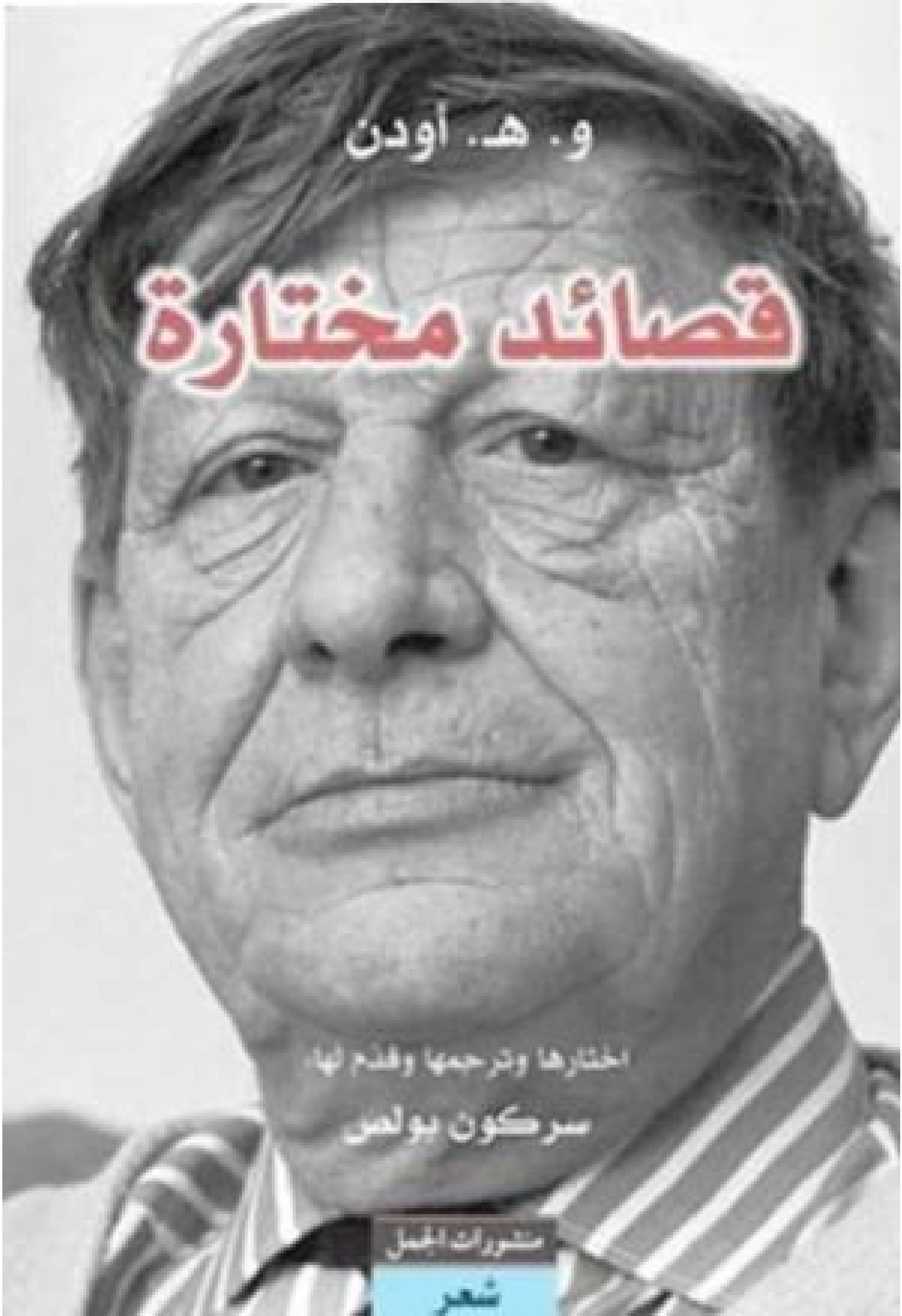
و. هـ. أودن
قصائد مختارة
اختارها وترجمها وقدم لها
سركون بولس
منشورات الجمل
شعر

سركون بولص

قصائد مختارة

و.هـ. أودن

منشورات الجمل

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

©منشورات الجمل

جميع الحقوق محفوظة

منشورات الجمل

ص.ب: 5438/113 – بيروت – لبنان

تلفون وفاكس: 00961 1 353304

e-mail: alkamel.verlag@gmail.com

www.al-kamel.de

تابعونا على

@منشورات الجمل

منشورات الجمل

منشورات الجمل

ولد سركون بولص عام ١٩٤٤، بالقرب من مدينة الحبانية - العراق، أقام منذ عام ١٩٦٩ في سان فرانسيسكو - الولايات المتحدة الأمريكية وتنقل بين دول عديدة، توفي ببرلين عام ٢٠٠٧. صدر له: الوصول إلى مدينة أين، شعر (منشورات سارق النار، أثينا ١٩٨٥)؛ الحياة قرب الأكروبول، شعر (دار توبقال، الدار البيضاء ١٩٨٨). صدر له عن منشورات الجمل: الأول والتالي، شعر (كولونيا، ١٩٩٢)؛ حامل الفانوس في ليل الذئاب، شعر (بيروت - كولونيا ١٩٩٦)؛ إذا كنت نائمًا في مركب نوح، شعر (بيروت - كولونيا ١٩٩٨)؛ اتيل عدنان: هناك، شعر، ترجمة (بيروت - كولونيا ٢٠٠٠)؛ عظمة أخرى لكلب القبيلة، شعر (بيروت - بغداد ٢٠٠٨)؛ جبران خليل جبران: النبي، ترجمة (بيروت - بغداد ٢٠٠٨)؛ الوصول إلى مدينة أين، شعر (بيروت - كولونيا ٢٠٠٣)؛ الحياة قرب الأكروبول، شعر (بيروت - بغداد ٢٠٠٨)؛ هو شي منه: يوميات في السجن، ترجمة (بيروت - بغداد ٢٠١١).

أودن: شاعر العصر

أودن الذي جاء كالعاصفة في العشرينيات من القرن السابق ليطيح بمبادئ شعرية كان يُظنّ أنها راسخة في زمانه، وأبدى معرفة مبكّرة بأصول الكتابة في كلّ مجالاتها مقرونة بذكاء خارق وموهبة فذّة لا تعرف الحدود، هو الذي يمكنه بجرّة قلمٍ أن يجترح مفاوز تتحدى الخيال، من العاديّ إلى الكونيّ (الكسرُ في قدح الشاي/ يفتح ممرًا إلى أرض الأموات)- أودن الذي كان بطل اليسار في الثلاثينات وقائد مجموعة من أنبغ الشعراء في إنكلترة تلك الحقبة (ستيفن سبندر، لويس ماكنيس وسيسل داي لويس) لم يكن شاعرًا على الصفحة فحسب، بل صاحب مواقف وتحدّيات: يصرُّ أودن دائمًا على دور الشاعر الذي يبقى حرًا في قلب النظام، أيًا كان هذا النظام. وكان له أن ينتظر حتى يموت آخر ناقد رجعي مُشبع بالتقاليد الإليوتية، مثل ج. س. فريسر، ليتناوله النقاد الجدد بدراسات حقيقية تكشف عن امتدادات عطائه الباذخ. ولم يحدث هذا سوى في الثمانينيات، أي بعد موت أودن (في ڤيينا بالنمسا، ١٩٧٣). لاأحد غيره كانت ستبلغ به الكبرياء والجرأة حدّ المجازفة بنيل جائزة نوبل التي كان مرشحًا لنيلها منذ الخمسينيات، دفاعًا عن حقّ الكاتب في قول الصدق مهما كلّفه الأمر، ورفضًا للتنازل يبلغ حدّ التهور: فقد طلبت منه اللجنة السويدية حذف فقرات معينة تتحدث عن الاشتراكية في مقدمته لكتاب

داغ همرشولد «علامات»، وكان أيّ كاتب آخر سيفعل ذلك بسهولة لكنّ أودن أصرّ على الوقوف بكلّ ثقله وراء تلك الفقرات المكلفة الثلاث.

بدأ أودن يكتب الشعر في ١٩٢٢ وهو في الخامسة عشرة من عمره، ولم تمض بضع سنوات حتى كان قد استوعب دروس الحداثة وانتصارات حركة المودرنزم التي كانت، في ذلك الوقت، وبعد صراعٍ طويل لإزاحة بقايا حطام الرومانسية والرمزية السائدة عن الساحة الأدبية الأوربيّة، في أوج اشتعالها بعد أن قطفت ثمار سلسلة من الاختبارات الصداميّة وتجاوزت مراحلها التجريبيّة الأولى. فبينما كانت أساليب الكتابة الأخرى تبدو قانعة بالإتكاء على هوامش ماضٍ رسمي مُفرّغ من لحمة المعنى. كان رواد المودرنزم وحدهم يتطلعون نحو مستقبلٍ صعب لايعترف بالتنازلات، ولايمكن اقتحامه إلّا بتفجير وسائل الكتابة من الداخل، أيّ في اصولها، عبر أشكال تعبيريّة جديدة مثقلة بالتحدّي في تعقيدها الذي لايقف عند حدّ، وفي عنفها العاطفي الذي يحتقر «الاعتدال» ويطمح إلى اجتراح وجد انساني غير مقتصد في عناقه للمضامين والأشياء. وما زال موكب علاماتها الفارقة يقف اليوم، نسيجَ وحده، شامخًا كما كان آنذاك: ففي ١٩٢٠ ظهرت رواية «نساء عاشقات» للورنس، وتلتها «أربع مسرحيات للراقصين» في ١٩٢١ لييتس، وفي السنة التالية ظهرت «الأرض الخراب» لإليوت و«يولسيز» لجويس، متبوعة في ١٩٢٣ بديوان

لورنس الفذّ من الشعر الحر «طيور، وحوش، وأزهار». أما سنة ١٩٢٥ فقدت شهدت ظهور «مخطوطة ١٦ كانتو» لإزرا باوند و«قصائد ١٩٠٩-١٩٢٥» لإليوت. وتتالت الأعمال الأخرى، صروحًا ثابتة في بناء الحداثة: «استشخاصات» لباوند، ١٩٢٧؛ «نحو الفنار» لفرجينيا وولف، في نفس السنة؛ «أنا ليفيا بلورابيل» (الفصول الأولى من «مناحة فينيغان» لجويس) و«الرخ» لوليم بتلر ييتس، ١٩٢٨ وبين ١٩٢٧-١٩٢٨ كتب أودن أولى قصائده الحديثة من الشعر الحر في أقصى مراحل التجديد وجمعها في ١٩٣٠ تحت عنوان «قصائد». وبدا، بالنسبة لأودن الشاب الذي كان يحلم بأن يكتب أعظمَ قصائد جيله، أن فكرة العودة إلى الوراء غير واردة.

ولم ينظر أودن إلى الوراء. كان أوّل كاتب انكليزي استوعب جميع دروس الحركة المعاصرة لكنه أيضًا فهم حدودها واختار أن يوجّه طاقاته في منحى آخر. إذ تحدّى الإتجاه الإنعزالي السلفي الغنائي في الكتابة وبعد قرن من السيادة، نجح أودن في دحره من الأساس. وعندما تصدّى لنقض أهداف رؤاد المودرنزم، أسلافه بالأمس، لم يُلحق ضربته هذه بمحاولة إنعاش التقليد الغنائيّ القوميّ الذي كان قد أسسه توماس هاردي، وهوالتقليد الذي كان يعتبر، في هذا الوقت، بديلًا عن المودرنزم العالمية وإن لم يكن سوى مجرى آخر من مجاري الخط الانعزالي، يضاهيها في حس الانتفاء عن صلب حاضره وفي انفصاله عن حياة المدينة. بل أنه،

بدل ذلك، طعّم شعره بالأبعاد التاريخية الشاسعة عند هاردي والانعطافات الفائقة الرهافة التي يتخذها شعر هذا الأخير، عبر الأحقاب والمسافات، ملحومة بالتفاصيل الدقيقة المستوحاة محليًا في أرض المعايشة.

وصبّ هذا كلّه في قوالب جديدة. حيث كان هاردي يقف متعاليًا وساخرًا وهو يشرف على تاريخ آلي الحركة والفعّالية، كان أودن يرى وجوب استجلاب المعرفة عنوة لتخدم حسّ المسؤولية. واقحم منظور هاردي، بهذا، في نسيج معايشة فريد تمتد تقاليده من جوسر، عبر شكسبير، إلى درايدن وبوب. كان أودن يكتب، في ١٩٢٩، عن أبطالٍ يعانقون العنف ويحملون مصائرهم بأيديهم، عن: «مقاتلين من أجل لا أحد/ ماتوا وراء الحدود». وبعد عشر سنوات اختار خطًا جديدًا، ولهجة أعمق في الاستشراف ليحتفي بأبطال من نوع آخر كفرويد، ممّن كانوا: «يفعلون من أجلنا بعض الخير/ وهم يعرفون أن هذا قطّ لا يكفي/ لكنهم كانوا يأملون أن يحسّنوا الأمور قليلًا بالحياة».

في نفس الوقت، أي عام ١٩٣٩، كان إليوت يلقي بنظرة حزينة وراءه، إلى انتصارات المودرنزم التي كان يرى فيها «محاولات أخيرة يقوم بها عالمٌ بائد، بالأحرى، وليس الصراعات الأولى لعالمٍ جديد». بينما كان أودن في قلب هذه الأنتصارات، قبل أن تبدأ حركة التحديث انهيارها المشهود، يعمل بهمّة وفي قمّة نشاطه على

جبهات شعريّة متعددة وغير مألوفة من قبل، بطرائق كان رواد الحركة يصرون على أنها مستحيلة. فقد كتب إليوت عن «المشقّات الكبرى والتضحيات المستمرة» التي يستلزمها بناء تقاليد جديدة أو تراث بديل يؤسس له الشاعر الجديد. في حين أن أودن اتخذ التراث الإنساني كلّه تجربة يومية تندلع في صلب مساره الشعريّ، واستخلص منه وسائط تصوّيرية واستدلالات خفيّة على غيره من مجايليه، أدخلها في تراكيب شعره بعفوية ودراية. كان شعراء المودرنزم، أي ييتس وباوند وإليوت، على قناعة بانهم لن يستطيعوا استحضار التراث وربطه باللحظة الحاضرة سوى على شكل أشلاء متناثرة تسندها عكاكيز السخرية، أو عبر محاولات بطوليّة لتجديد رونقه البالي. أما بالنسبة لأودن، فهو لم يبال قط. على أنّ هذا المسار الذي جنّد له أودن خبرته الشعريّة ذات النفاذ الموسوعي الشامل كان يمكن له أن يبدو الآن مجرد طريق مسدودة يؤرّخ لها، دون أن تفتح لأتباعه مجالات أخرى للاكتشاف والتقصّي. لكنه كان يضرب في إتجاه جديد أسوة بأعظم معاصريه القريبين في أوربا. وأهمهم برتولد بريخت فقد بدأ كلاهما فوضويّين ورومانسيّين، ملحدين عنيفين مناهضين للروزنامة الأخلاقية، وشجبا أساليب الكتابة المندفعة الاستفزازية التي بدأ بها ليختار كلاهما صوت التحريض المبطّن بالمعرفة الحيّة أينما وجدا، سواء في الأمثال أو الأساطير أو السيرة، إن كان صالحًا للهجاء والاحتفال

الطقوسي. حيث كان شعراء المودرنزم يستعملون الشكل الجديد للحديث عن حتمية التاريخ، تبنى كلّ من أودن وبريخت أشكالًا تقليدية للحديث عن الحرية والاختيار. وسع كلاهما مجال التعبير ليطال محتوى واستشراف التحليل التاريخي، والخطبة السياسية، والفلسفة، والنقد الاجتماعي والأدبي وحتى لغة الإشاعات. ومن هنا امتلاء الإشارة وموسوعية المادة والأسلوب. وقد قرن أودن كل هذا بدفق متصل من الكتابة، من «مدفوع له من الجانبين» المسرحية التي أسست شهرته، مع «قصائد» في ١٩٣٠، إلى «الخطباء» في ١٩٣٢ و«تأمل أيها الغريب» ١٩٣٦ ومسرحية «رقصة الموت» وثلاث مسرحيات أخرى كتبها مع كريستوفر آيشروود: «الكلب تحت الجلد» ١٩٣٥، و«صعود ف٦» سنة ١٩٣٦ و«على الجبهة» ١٩٣٨. ثم تتالت أعماله الأخرى: «رسائل من أيسلندة» و«رحلة إلى حرب» من وحي رحلة قام بها مع صديقه آيشروود إلى الصين. وبعد هجرته إلى أميركا في الأربعينيات أصدر «زمان آخر» و«الرجل المزدوج» وثلاث قصائد ملحمية طويلة: «لهذا الزمن الحاضر» و«البحر والمرآة» و«عصر اللهف». وفي مرحلته الأخيرة كتب «درع آخيل» ١٩٥٥، «تحية إلى كليو» ١٩٦٠، «حوالي البيت» ١٩٦٥، و«مدينة بلا أسوار» ١٩٦٩. بالإضافة إلى كتابات نقدية وليبريتوات لأوبرات كثيرة تعاون فيها مع موسيقيين عالميين كسترافينسكي وهانز هنزه ونيكولاس نابوكوف.

في بداية الثلاثينيات كان أودن قد تبوأ مكانته في الطليعة، باعتراف أكثر معاصريه، كأكبر شاعر في اللغة الانكليزية بناء على شمولية رؤياه للمجتمع الحديث وحقائق العصر السياسية بشكل أعمق واكثر نفاذا مما لدى إليوت أو وليم ييتس، اللذين كانا قد سبقاه في احتلال هذه المكانة. وبعد موت إليوت في ١٩٦٥، لم يعد هناك شك في أن أودن خليفته الشرعي في هذا المضمار، كما ورث إليوت عرش الريادة بعد موت ييتس في ١٩٣٩.

المسعى

الباب

يخطو خارجًا منه مستقبل الفقراء
معضلاتٌ، جلادون وأحكام
سيئ مزاج صاحبة الجلالة
أو البهلول الأحمر الأنف يُبهلل البهاليل.

تحدجه شخصيّات عظيمة عند الغسق
بانتظار ماض قد يسمح له غافلًا بالدخول،
أرملة لها تكشيرة المبشّرين
والعقاب الآتي مُزبدًا يصحبه الهدير.

نكوّم تلقاءه كل ما لدينا عندما نخاف،
ونضرب على دفّتيه عندما نموت،
لأنه حدث أن كان مفتوحًا ذات مرة.

فقد أتاح لـ «أليس» الهائلة أن ترى أرض عجائب
تنتظرها في أشعة الشمس، ولأنه بكل بساطة
كان ضئيلًا هكذا، جعلها تبكي.

الاستعدادات

كلّ شيء تم شراؤه قبل البداية بأسابيع

من أحسن المؤسسات ذات الاختصاص، أدوات قياسية
لتسجيل كل واقعة غريبة
وأدوية لتحريك الأمعاء أو القلب.

ساعة، بالطبع، لرؤية التلهف وكيف يطير
مصابيح للظلام ونظارات لاتقاء أشعة الشمس:
التوجس، أيضًا، كان يشدد على بندقية
وخرز ملون يجلب لعين المتوحش السرور.

كانت توقعاتهم، نظريًا، سليمة،
لو أن هناك أوضاعًا ليوجدوا فيها،
لكنهم، لسوء الحظ، كانوا هم أوضاعهم:

لا ينبغي أن يعطى الدواء لمن ينوي أن يسقم،
ولا أجهزة بديعة للمشعوذ، ولا بندقية
لثقيل الظلّ المصاب بالسويداء.

المفرق

انصرف الصديقان اللذان التقيا هنا وتعانقا،
كلّ إلى غلطته الفردية، لواحد بريق الشهرة
عن طريق أكذوبة رنانة، ثم الخراب،
وللثاني قربة تعطل حواسه بخمولها،

مَظلَمة محليّة تستغرق وقتًا حتى تموت:
إن هذا المفرق الخاوي للقطارات يلمع في الشمس.

هكذا، على كلّ أرصفة المرافئ، وكل مفترق في الطريق:
من ذا بوسعه أن يتنبأ،
في أماكن الوداع واتخاذ القرارات هذه، إلى أي عار تودي كلّ مغامرة،
أيّة هديّة منحت عند الوداع، لها أن تقي ذاك الصديق،
هو المهووس بحيث يحتاج لنيل مرامه
إلى «الأراضي الخطرة» ويسلك الإتجاه المنحوس؟
كلّ المناظر وكلّ المناخات تتجمد خوفًا،
لكن أحدًا لم يسبق له أن فكّر، كما تروي الأساطير،
بأن الزمن المتاح لنا، قد يقضي باستحالة هذا
فأكثرنا تشاؤمًا يضع حدًا لأخطائه،
لا يتجاوز سنة واحدة.
من يبقى من بين الاصدقاء إذًا، لكي يخان آنذاك؟
أيّة متع يتطلّب التكفير عنها وقتًا أطول؟ ومع هذا
من بمقدوره أن ينجز الرحلة التي لا ينبغي
أن تستغرق وقتًا يذكر، من دون ذلك اليوم الإضافي؟

المسافر

ما من نافذة، في ضاحيته، تنير ذلك المخدع

حيث كان لنوبة خفيفة من الحمى أن تسمع لعب الضحاءات الكبيرة:

إن مراعيه تتكاثر، غير أن تلك الطاحونة التي كانت
لا تكف عن الطحن، وراء ظهر الحب، طوال النهار، لم تعد حيث كانت الآن.

ولا طريق واحدة من طرقاته المهلكة، عبر القفار المنهكة
أوصلته إلى القلعة التي استودعت فيها «صلواته الكبرى»،
فالجسور المكسورة تعرقله، وأحراش مظلمة
تسوّر خرابة ما حيث أحرق إرث شرير.

لو قيض له أن ينسى طموح الأطفال في أن يكبروا
والمعاهد التي تعلموا فيها الاغتسال والافتراء،
لقال الحقيقة التي يعتبر نفسه أصغر من أن يقولها.

تلك التي، في كلّ مكان على مدى أفقه، كلّ السماء
إنما تنتظر الآن، كما كانت دائمًا، أن تقال
لتصير بيت أبيه، وتنطق لغته الأم.

المدينة

في القرى التي انطلقت منها طفولاتهم

بحثا عن الضرورة، كانوا قد لقنوا
أن الضرورة بطبيعتها، تبقى هي، أيًا كنّا
وكيفما نشدناها.

على أن المدينة لم تكن لتعتنق معتقدًا كهذا
بل رحّبت بكلّ منهم كما لو أنّه وحده الذي جاء
فمن طبيعة الضرورة أن تستجيب
لأساه عن طريق أساها.

وقدّمت لهم منه الكفاية، بحيث أن الكل
وجد لنفسه ثغة إغواء لائقًا بالتحكّم فيه
وتفرّغ ليبلو جميع أسرار الحرفة التي
ستجعل منه لا أحد، كان يجلس في الشمس
على طرف النافورة أثناء ساعة الغداء
ويضحك، كلما رأى الأغرار القادمين من الأرياف.

الإغواء الأول

بعد أن منعه خزيه من أن يتخذ الأسى
عشيقا له، انضمّ إلى عصابة صاخبة من الحكّائين
حيث بوّأته هباته السحرية بسرعة مكان الرئاسة
بين جميع هاته القوى الصبيانية التي تمتلك الهواء:

قلبت جوعانه ولائم رومانية

وتخطيط البلدة اللامتجانس؛ حديقة للنزهة؛
يأخذ التاكسي ساعة يشاء، ويطري مفاتن كل عزلة
لتصبح دوقته المدلّلة في الظلام.

لكنه، إذا ما توخّى شيئًا أقلّ جسامة،
تعقّبته الليالي مثل وحوش ضارية تريد الأذى
وصاحت جميع الأبواب «حرامي»!

وعندما التقت به الحقيقة ومدّت يدها
تشبّث مذعورًا بإيمانه العالي
ومثل طفل أسيئت معاملته، تقهقر منكمشًا إلى الوراء.

الإغواء الثاني

بدأت مكتبته تبعث فيه الضيق
وعليها مسحة تشي بإيمان هادئ في أنّها حقًّا هناك،
قذف بعيدًا بكتاب سخيف لأحد منافسيه
وصعد لاهثًا الدرج اللولبي.

وإذ يتأرجح على المطلّ، أخذ يصيح:
«أيها العدم الذي لم يخلق بعد، اطلق سراحي
دع كل ما هو كامل في مرآك
أنت يا وجد الليل الذي لا ينتهي، يتجسّد فيك الآن».

وها إن لحمه الذي كابد الكثير
وكان طوال الوقت يحس بجوع الحجارة
ويأمل أن يجازى على عنائه في التسلق،

صار وعدًا لديه، ما فاه به عندما قال
إنه الآن سيتركه وشأنه أخيرًا،
ثم اندفع نحو باحة الكلية وانهار هناك.

الإغواء الثالث

راقب بكل جوارحه المعنيّة
كيف يسير الأمراء، ما تتفوّه به الزوجات والأطفال
أعاد فتح القبور في قلبه ليعرف
أيّ قوانين مات من أجل ألا يطيعها، الأموات.

وتوصّل بعد تردّد إلى استنتاجه:
«زائفةٌ كلّ فلسفة تأتينا من مقعد وثير،
أن نحب الآخر، لهو عبء إضافي
أغنية الرحمة ليست سوى فالس الشيطان».

وإذا بكل شئ يزدهر ما إن يمسه
حتى أصبح ملكًا على المخلوقات بين ليلة وضحاها
ومع ذلك، أثناء كابوس داهمه ذات يوم خريفي

أخذ يرتعش إذ رأى أحدًا يقترب منه
حاملًا ملامحه المشوّهة بذاتها، بكى
وتضخّم بشكل مهول، ونادى عليه بالويل.

البرج

ها هنا معمارٌ لكلّ ما هو غريب؛
هكذا هجم الخائفون على السماء
وأباحت عذراء سادرة، ذات يوم
بكارتها لثقة إله.

هنا أثناء الليالي المظلمة، بينما تنعس عوالم الانتصارات
يحترق الحبّ في تأملاته المجرّدة
وتعود الإرادة المنفيّة إلى السياسة
بشعرٍ ملحميّ يبكي له خائنوها.

يتمنّى الكثيرون، رغم ذلك، لو أنّ برجهم بئرٌ؛
فمن يخشى الغرق، قد يموت من الظمأ
ويصبح غير مرئيّ، من رأى الكل:

هنا يتوق السحرة الكبار، تحت طائلة سحرهم واقعين

إلى ثقة مناخ طبيعي بينما يتأوهون قائلين:
«إيّاك والسحر» لكل عابر في الطريق.

الأدعياء

لاحظوا أنهم بحاجة إلى البكارة
إذا أرادوا أن يصيدوا الكركدن في كلّ الأحوال
لكنهم أغفلوا أن يروا أن نسبة عالية من هاتيك العذارى
اللواتي نجحن، كانت لهنّ وجوه دميمة.

كان البطل جسورًا حسبما قدّروا
إلا أنهم ظلّوا جاهلين بصياه المثير
وكان ملاك ساقه المكسورة قد علّمه
التحوّطات المناسبة لتحاشي السقوط.

هكذا، بهذه المسلمات، انطلقوا وحدهم
لينجزوا ما لم يكونوا به ملزمين
وغرقلوا في منتصف الطريق فأقاموا في أحد الكهوف
مع أسود الصحراء حتى دجنوها.

أو أنهم استداروا جانبًا ليظهروا شجاعة خرقاء
والتقوا بالغول فحوّلهم إلى حجر.

العاديّون

كاد الكدّ يقضي على والديه الفلاحين
ليؤفرا من أجل حبيبهما الرحيل، من تربة شحيحة
إلى أية حرفة من تلك الحرف البديعة
التي تشجع على التنفس بضحالة، والإثراء بسرعة.

تحت وطأة طموحهما الملئ بالشغف
استبد الذعر بطفلهما الخجول، المولع بالريف
في أنه ما من منصب معقول سيرضيه.
إن البطل وحده جدير بحبّ كهذا.

وها هو هنا بلا خرائط أو تجهيزات
بعيدًا بمائة ميل عن أيّة بلدة ملائمة
في عينيه القانيتين كالدم تبرق الصحراء.

ويهدر الصمت دليلًا على امتعاضه:
وإذ تطلع إلى الأسفل، رأى ظلّ رجل عادي
يحاول الاستثنائي، فلاذ بالفرار.

مَهَمَة

حذق، غير مصدق، في الموظف الذي يسجل اسمه
متلفظا بين أسماء أولئك الذين
رفضت عرائضهم المطالبة بالمشاركة في الألم.

ثم كف القلم عن الصرير، لكنه رغم مجيئه بعد فوات الأوان
ليلتحق بالشهداء، فما زال هناك مكان
بين الغواة لثمة لسان سليط.

يختبر عزيمة الشباب بالحكايات
عن الإخفاقات الصغيرة للعظماء
ويخزي من به لهف، بالساخر من المديح.

رغم أن المرايا قد تغدو كريهة لفترة
فإن النساء والكتب ستعلّمه في أواسط عمره
براعة اللوذعي ذي الأسلوب اللارسمي في النزال.

حتى لا يطاله الصمت
ويسجن هلوسات تمشيه الدائب
في قفص ابتسامة دنيوية.

النافعون

المسرف في منطقه، أغوته الساحرة

التي حولته بحجّتها إلى حجر
وما أسرع اللصوص في تشليح المسرف الثراء
بينما جنّ وحده المسرف في الشهرة
وأغارت القبل على المسرف الفحولة.

سرعان ما تلاشت أهميتهم كموكلين
مع أنّ قيمتهم كأدوات لدى من حكم عليه
بتحقيق أمانيهم، كانت تزداد
بنسبة الفشل الذي بدا أنّهم يعانون منه.

العميان يتحسّسون طريقهم بالأنصاب الحجرية
والكلاب الشرسة تجبر الجبناء على القتال
يساعد الشحاذون من كان بطيئًا على السفر بأمتعة خفيفة
وحتى المجانين يقيض لهم احيانًا
أن يتحفونا بحقائق غير مقبولة في هذيانهم المحزن.

الطريقة

في كل يوم يضيفون ملحقات جديدة
إلى موسوعة «الطريقة».

ملاحظات لغويّة وإيضاحات علميّة

ونصوص للمدارس بتهجئة مُفضرنة تزيّنها الصور.

الكلّ يعرف الآن أنّ على البطل أن يختار حصانه الهرم
أن يطلّق الخمر ويقلع عن النكاح.

الكلّ يعتقد الآن أنه لو أراد
لاستطاع أن يجد الطريق عبر القفار.

إلى الكنيسة القائمة في الصخرة
ليَنال رؤيا «قوس قزح الثالوث» أو «الساعة العلويّة».

متناسيًا أنّ معلوماته غالبًا ما تصدر
عن رجال متزوّجين كانوا مولعين بصيد السمك وركوب
الخيل بين فترة وأخرى.

وإلى أيّ حد يمكن لأيّة حقيقة أن تعتمد إذا توصل إليها
عن طريق المراقبة الذاتية ودس «اللاءات»، وحسب، بين ثناياها؟

المحظوظون

لنفترض أنه أصغى إلى لجنة العارفين:
كان سيعثر فقط على المكان الذي لا ينبغي له أن يبحث فيه؛
لنفترض أنّ كلبه أطاعه عندما صفّر له،
إذًا لما كشف بنبشه عن المدينة المطمورة،
لنفترض أنه لم يطرد الخادمة المهملة،
إذًا لما سقطت الشيفرة مرفرفة من الكتاب.

صرخ وهو يطأ جمجمة أحد أسلافه
معافى البدن، وجد مصعوق: «لم أكن أنا
بل إن قطعة من الهراء أخذت ترنّ في رأسي
تركت أبا الهول المثقّف غارقًا في الذهول:
ظفرت بالملكة لأنّ شعري أحمر،
إنّ في المغامرة الخطيرة، شيئًا من البلادة».

من هنا عذاب الخيبة: «هل كان هذا محتّمًا في كل حال
أم أنني لم أكن لأفشل لو آمنت بالنعيم؟»

البطل

صدّ كل سؤال صوّبوه إليه:

«ماذا قال لك الامبراطور؟» «ألّا أتجاوز الحد».

«ما هي أعظم أعجوبة في العالم؟»
«الرجل العاديّ المسمى «لا شيء» في تعريشة الشحاذ».

تمتم بعضهم: «إنه يستميت لينتزع الإعجاب.
فعلى عاتق البطل واجب نحو شهرته.
مظهره أقرب الى البقّال من أن يوحي بالاحترام»
وسرعان ما عادوا بعد ذلك إلى مناداته باسمه الأول.

الفرق الوحيد الذي بقي جليًا بينه وبين الذين
لم يجازفوا يوما بحياتهم
كان شغفه بالتفاصيل والروتين:

فقد كان يجد متعة دائمًا في أن يقضّ العشب
أن يسكب السوائل من القناني الكبيرة في الصغيرة
أو يتطلّع عبر شظايا الزجاج الملوّن إلى السحاب.

مغامرة

كان آخرون قد انعطفوا من قبل إلى اليسار
لكن فقط تحت ضغط اعتراض خارجيّ،
لصوص ناقمون أخرجهم «القانون» على القوانين

ومجذومون يصابون بالذعر من المذعورين.

ما من أحد إنّهم هؤلاء بثقة جريمة؛
لم يكن يبدو عليهم المرض: الأصدقاء القدامى
حدّقوا فيهم ذاهلين يتدحرجون مثل الكلل بعيدًا عن
الحديث والزمان
لينغمسوا في كلّ ما هو فارغ وبليد.

ممّا جعل الجماهير تتشبّث أكثر بالتقاليد
وبالأيام المشمسة والخيول، فالعقلاء يعرفون
كم ينبغي للأعداد الزوجية أن تتجاهل الفردية.

ما لا تأتي على ذكره أيّة أمة حرّة، هو «اللامسمى»،
والناجحون أكثر فطنة من أن يحاولوا
رؤية وجه ربهم المحجوب.

المغامرون

سلكوا الطريق السالبة نحو اليباس
مدومين على ظمأهم المركزي كالخذاريف،
وفي كهوف خاوية تحت سماء خاوية
أفرغوا ذكرياتهم كأنّها فضلات.

فصارت مستنقعًا جائفًا بينما يجفّون حتى الموت،

حيث تناسلت وحوش أجبرتهم على نسيان
الحبيبات اللواتي هجرنهم عندما قرروا الانصياع،
ومع ذلك تفرّقوا في معجزاتهم كالبذور.

وما زالوا يمدحون «المحال» حتى الرمق الأخير:
أصبحت الصور الآتية من كل إغواء شائه
تموّن رسامًا ما بأسعد الإلهام.

وجاءت الزوجات العواقر والعذارى الملتهبات
ليشربن الماء النقي البارد من آبارهم
ويدعين باسمهم ليرزقن عشاقًا وأطفالًا.

المياه

الشاعر، والعزّاف، والألمعي
يجلسون كصيادي سمك خائبين
عند بركة الاستبطان
يستعملون المطلب الخاطئ طعمًا
لينالوا مآربهم، ويروون،
عندما يهبط الليل، كذبة الصياد.

وطالما الزمان عاصف في كلّ مكان
يتشبث كلّ من الأتقياء والمنافقين
بأطواف القناعة الضعيفة،

الظواهر الطبيعية في هياجها
تنقض بأمواج كاسحة لتغرق
كلّا من المعذّب والعذاب.

يحلو للمياه أن تسمع سؤالنا المطروح
فهو سيطلق الجواب الذي مكثت بانتظاره، لكن.

الحديقة

كلّ انفتاح يبدأ بعد اجتياز هذه الأبواب:
الأبيض يصيح ويلتمع عبر الأخضر والأحمر فيه
حيث يلعب الأطفال لعبة الخطايا السبع المتزفتة
وتؤمن الكلاب أنّ شقاءها المزمن، تولّى.

هنا تفتّت المراهقة الدائرة الكاملة
التي بوسع الزمان أن يرسمها على الحجر، إلى أرقام
ويغفر اللحم للانقسام إذ يجعل من
لحظة انصياع الآخر، لحظة له هو.

هنا تنتهي جميع الأسفار، أزيحت الأماني والأعباء.
حيث رمت الورود بمجدها مثل معطف
حول كآبة عانس مسنة ما.

أحمر خجلًا كلا الضامر والعظيم، والمتحدّث الشهير
أمام تحديقة المساء بينما هم يتحدّثون
وأحسّوا بأن محور خياراتهم قد انزاح.

مشهد بحر

تأمل، على هذه الجزيرة
التي يجلوها الآن، من أجل مسرّتك، الضياء
وقِف هنا ثابتًا أيّها الغريب
والزم السكوت
لكي يطوف الصوت المتأرجح الآتي من البحر
في صِماخ أذنيك، مثل تيار.

هنا عند نهاية الحقل الصغير
توقّف، عندما ينهار حائط الكلس إلى الزبد
وتعارض أفاريزه الطويلة
زحامَ المدّ وجذبَه
وفي لحاقها بالموج المضاص تكركبُ الحصى
ويجثم نورسٌ، هنيهة، على جانبه المواجه للعراء.

المراكبُ تتفرّق باتّجاه غاياتها المنشودة
مثل بذور طافية في البعيد
وهذا المشهد الملئ قد يدخل حقًّا إلى الذاكرة
ليعبثَ بها كما تفعل هذه الغيوم الآن
إذ تنسلُّ عابرةً فوق مرآة الميناء
وطيلة الصيف، على سطح الماء، تتهادى.

متحف الفنون الجميلة

بخصوص الآلام، كانوا محقّين دائمًا:
أساطينُ الفن القدامى. وكم كان فهمهم بالغًا
لموضعها بين البشر، كيف أنها تأخذ بالحدوث
بينما يأكل أحدهم أو يفتح نافذة أو يمشي في سبيله البليد.
كيف ينبغي حتى عندما يُقفْقِفُ المسنُّون في خشوعهم
ووَجْدهم بانتظار الولادة المعجزة؛
أن يكون هناك دائمًا أطفال لم يريدوا
وقوعها بشكل خاص، إذ ينطلقون في التزلّج
على سطح غدير في طرف الغابة: لم ينسوا أبدًا
أنّ على الشهادة، حتى هي
أن تأخذ مجراها في ثقة زاوية
على أيّة حال، في بقعة لَبِكة
حيث تمارس حياتها الكلبيّةَ الكلاب. ويحك حصان الجلّاد
مؤخّرته البريئة تلقاء شجرة.

في لوحة بروغل «إيكاروس»، مثلًا: بأيّ ترفٍ
يُشيحُ كلّ شيء زائغًا عن المصيبة. لعلّ الحرّاث
سمع صوت الارتطام بالماء، الصرخة المهجورة
لكنّ هذا لم يكن يشكّل بالنسبة إليه، خيبة كبرى.
فالشمس كعادتها، كانت تُشعّ على الساقين

البيضاوين إذ تختفيان في المياه الخضراء.
والسفينةُ البديعة الصنع، المُكلّفة
التي لابدّ أن ركّابها
رأوا شيئًا مذهلًا، صبيًّا يسقط من السماء،
كانت لها وجهةٌ تسعى إليها، فأبحرتْ نحوها بسكينة.

العاصمة

مَربَع اللذّات حيث ينتظر الأغنياء،
انتظارًا مكلفًا دائمًا، أن تقع المعجزات:
مطاعمُ ذات إضاءة خافتة حيث يلتهم العشّاق
بعضهم، مقهًى أسّس فيها المنفيّون قرية للدسائس:

لقد محوتِ، بوساطة سحركِ وأجهزتكِ الأخرى
صرامة الشتاء وعفويّة الربيع.
بعيدًا عن أضوائكِ، حيث الأب المحتقن غضبًا
يكيلُ القصاص، تتجلّى الطاعة
المحضةُ بكلّ بلادتها.

هكذا، بالنظرات وفرق الأوركسترا، سرعان ما تخونيننا
دافعةً إيّانا للإيمان بقوانا اللانهائية. والمغفّل الذي
أخطأ بكلّ براءة مرّةً، ينقلب بعد وقت وجيز
ضحيّة لآلهة الهياج الخفيّة في قلبه.

أنتِ تُخفين عنّا مايصدم العين بعيدًا في شوارع غير مضاءة،
معامل تصنع فيها الحياةُ لكي تُستهلك مؤقتًا
كالياقات أو الكراسي؛ غرف يُهرَس فيها الوحيدون
ببطءٍ كالحصى، متّخذين أشكالًا عرضيّة.

لكنّ السماء التي ثنيرين، لها ألق يرى من بعيد
في ظلام الأرياف، الهائلة، المتجمّدة
حيث تومئين، مثل عمّ ماكر يشير إلى المحرّمات
داعية إليك أطفال المَزارع ليلة بعد ليلة.

انحيازُنا

تهمس الساعة الرمليّة ردًا على زئير الأسد،
والأبراج بساعاتها تخبر الحدائق ليل نهار،
كم من الأخطاء يمكن أن يصبر عليها الزمن،
وكم هي مخطئة في كونها دومًا على صواب.

مع ذلك، الزمان، مهما كانت عاليةً دقّاته أو عميقة،
مهما كان شلالُه الساقط سريعًا في جريانه،
لم يسبقْ له أن حرم أسدًا واحدًا من وثبته،
ولا زعزع يقين زهرة.

فهُمْ كما يبدو، لا همَّ لهم سوى النجاح،
بينما نحن نختارُ الكلمات حسب أصواتها،
ونحكمُ على المشكلِ بمدى ارتباكه؛
وكان الزمان دائمًا يحظى برضانا.

متى لم نفضّلْ أن نحوم دائرين قليلًا
على ذهابنا إلى حيث نحن، باستقامة؟

نحن أيضًا عرفنا ساعاتٍ ذهبيّة

نحن، أيضًا، عرفنا ساعات ذهبيّة
تواءمتء فيها الروح مع الجسد،
رقصنا مع حبيباتنا الصادقات
في ضياء البدر،
وجالسنا الحكماء والصالحين
حين استولى المرح على الألسنة وأطلقتها الظرافة
على ثفة صحنٍ كريم
جاءوا به من «اسكوفييه»؛
شعرنا بالمجد المقتحم
يمزق التحفظات إربًا، وكنا سنغنّي
متفاخرين بقلب مِرنان، على الطراز القديم.
ولكن، مخدوشة بالبراثن
ومُلاحقة من قبل الجموع المتساهلة، بالإشاعات
«مطبوخةً» من قبل المحرّرين
في تعاويذ سحريّة لِتَلبلة الجماهير؛
جميع الكلمات «كالسلام» و«الحب»،
كلُّ الكلام الصاحي والإيجابي
تمّ تلويصه، الكفر به، تحقيرهُ
لينحوّل صريرًا آليًا مقرفًا:
لم يبق ثفة أسلوب مؤدب
بعد تلك الجعجعة والهرج
غير اللهجة الصائتة على انفراد
ساخرةً، ذات نزوع أحادي،

وأين لنا أن نجد ملجأ للفرح
أو لمجرّد الرضى
طالما لم يتركوا شيئًا على حاله
سوى ضاحية العصيان؟

أغنية ليوم الحساب

في صندوقٍ جماعيّ واحد
من عتمة غبائهم، معًا، نفس الركام
تستلقي البجعة جنبًا إلى جنب
مع القيصر والأوركيدة؛
لقد محا الزمانُ الذي يتعب من الجميع
وأزال الأقفال كلّها، ثم ألقى
بالمفتاح، لاهيًا، إلى البعيد.

إنّ التيّار الجاري في أخدودهِ يسخر من أنبياء كانوا يجنون الفائدة
من كلّ صيحة أطلقوها في عهد غابر
ولم تعد لهم، عند أحد، كرامة.
وللحمير لغةٌ لن تصدم سوى
آذان الشعراء القادرين على التورية فقط.

الصمت يجثم على الساعات،
أمّا المرضعاتُ فيشهرن بُنْصرًا خبيثة
لأي وجه سماءٍ
تَقْزمزثُ بالشمس الآفلة،
في وادي الثعالب
تبرق ماسورة بندقيّة.

كان بوسعنا، ذات يومٍ أن نبلغ المرفأ

أما الآن فقد فُوّت علينا كلّ أوان للفرار؛
ما لا ينبغي اقترافه
جنينا به، أنتِ وأنا، مرّات أكثر ممّا يجب،
وها أنّ أوغادًا ذوي شراسة
يمرقون بين صخور المرفأ، هائجين.

الرّقباء

الآن أرقب الليل من إفريز نافذتي؛
وجه الساعة الأصفر فوق الكنيسة، وضياء أخضر في الميناء
يشتعل من أجل سنة طائشة جديدة؛
الصمت يطنُّ في أذني،
مصابيح العوائل المجاورة، مطفأة.

لا يبدو أنّ شيئًا في الظلام يتحرّك.
شجيرة الليلك مثل متآمر
تتظاهرُ بالموت في الجنينة، وهُناك
فوق سارية العلمِ يتدلّى «الدبُّ الأكبر»
على «هلنسبرغ» مثل نذير.

آه يا «سادةَ الحدّ»، مدربّي الظلام والنور
أنتم يا من حظرتم بين اليسار واليمين،
ذَينك التوأمين الهادئين المسيطرين
اللذين منهما تبدأ الملكيّة،
انظروا إلينا الليلة جميعًا نظرة المسامحة.

لا أحد رآكم. ليس لأحد أن يقول، «مؤخرًا- هاك. يمكنك أن ترى العلامات- كانوا بانتظاري».
لكنّكم تبدون الليلة في أفكاري
بأشكال رأيتها ذات مرة في الحلم، مَلاكًا بِدانًا لقطعة

أرض في البريّة:

حاملين البنادق، صحّت أم أمطرت، تحت أذرعكم
مُعسكرين في مداخل البيوت، جاثمين على المنحدرات
جوار الأيكة أو الجسر نعرف أنّكم هناك
أنتم يا من حضورهم يعزّز سلامنا علينا
بتهديد مستمرّ لا يكفّ.

لا تبالغوا في التفتيش، لا تتجاوزوا السرعة، ما من دعوة لنا، لكنّنا قرفنا حقًّا
مستخدمين وسيلةَ الخُلْد، مِشيةَ الطاووس
أو شجاعةَ الفأر اليائسة
ولن نعبر بين حواجزكم سوى بالحيلة.
السنة تتقدّم متوغّلة في الصيف أكثر.
ماذا لو أنّ الرائي المتضوّر جوعًا رأى الكرنفال
يقارب البوّابات، وأجسادكم يرفسونها في الشوارع
لكنّ ما زلنا بحاجةٍ إلى سلطتكم:
استعملوها، بحيث أنّ احدًا

لن يندفع هائجًا، آه، من طاولته
دون أن تمكن السيطرة عليه، متطاولًا وطاعنًا
متبلّد الحسّ تجاه الأذى، خطرًا في غرفة أو خارجًا
يُدوّخ بوحشيّة مثل خروف في الحقول،

يعرق ويكابد عبر يومه الخال من الراحة.

إسبانيا

بالأمس كلّ الماضي. لغة الأحجام
تنتشر على طريق القوافل إلى الصين؛ بلبلة لوح الحساب
ودائرة الحجر:
بالأمس، نذير الظلّ في المناخات المشمسة.

بالأمس تقدير حسابات التأمين عن طريق أوراق الميسر،
التنبؤ بالماء؛ بالأمس اختراع عجلات للعربات والساعات
ترويض الخيول؛

بالأمس عالم الملّاحين الملئ بالحميّا.

بالأمس القضاء على الجنيّات والعمالقة؛
القلعة مثل نسر ساكن تحدج الوادي،
الكنيسة المبنيّة في الغابة؛
بالأمس نحت الملائكة وتماثيل المسوخ المخيفة.

محاكمْ الهراطقة بين العواميد الحجريّة، بالأمس؛
معارك حول الدين في الحانات
والشفاء المعجز في النافورة:
«بالأمس سبت الساحرات». لكن اليوم، جهاد.

بالأمس تعمير الديناموات والتربينات؛
مد السكك الحديد عبر الصحراء المستعمَرة؛
المحاضرة الكلاسيكية
حول أصل البشريّة، بالأمس. لكن اليوم الجهاد.

بالأمس الإيمان بالقيمة المطلقة لليونانيّة؛
سقوط الستار على موت بطل.
بالأمس الصلاة للغروب
وعبادة المجانين. لكن اليوم الجهاد.

مثلما يهمس الشاعر، مُجفلًا بين الصنوبرات أو
حيث يغنّي الشلال الطليق، رابطَ الجأش،
أو منتصبًا باستقامة، على نتوء صخري في جوار البرج
المائل:

«آه، يارؤياي. آه فلتجعلي لي حظّ الملّاح».
فيكمل الباحث الذي يفترس عبر أدواته الرائية
في أقاليم غير بشريّة، في الجرثوم الخصيب
أو عطارد الهائل، قائلًا:
«ولكنْ ماذا عن حياة أصدقائي. أتساءل، أتساءل».

والفقراء في دورهم التي بلا نار، يرمون بصفيحة

المساء
ساخطين إلى الأرض: «نهارنا خسارة علينا. آه فلترنا
(التاريخ) ذلك المحرّك، ذلك المنظّم
و(الزمان) ذلك النهر الذي يُحيي».

وتحزمُ الأمم كلّ صرخة، موحيّة
بالحياة التي تشكّلُ البطنَ المفرد ولها الإمرة
على الرعب الليليّ أثناء الانفراد:
ألم تكن أنت من أمس، ذات يوم، دويلة الإسفنجة

وشيّد عاليًا امبراطوريات عسكريّة شاسعة باسم الكوسج
والنمر، من بنى كانتون البلبل الملئ بالتغريد؟
تدخّل. آه فلتنزلْ على شكل حمامة أو أب غاضب
أو مهندس ناعم الطباع، ولكنْ عليك أن تعجّل بالنزول.
وإذا كان للحياة أن تجيب، فإنما من القلب
ومن العيون والرئات،
من دكاكين المدينة وساحاتها:
«آه كلا، لست أنا المحرّك، ليس اليوم، ليس بالنسبة اليك.

بالنسبة إليك ما أنا إلّا ذلك الخانع الذي هو صاحبُ لك في البار

ويُخدعُ بسهولة: أنا كلّ ما تفعلُ مهما كان، أنا قسَمُك
الذي حلفتَ به أن تفعل الخير،
إنني قصّتك الفكاهية: أنا صوت وظيفتك؛ أنا زواجك.

ما هو اقتراحك؟ أن أبني (المدينة العادلة)؟ إذًا
سأفعل.
أوافق. أم هل هو صفقة للإنتحار، للحبّ الرومانسي؟
حسنًا جدًا، سأقبل، لأنّني أنا
اختيارك، إنّني قرارك: نعم، أنا اسبانيا».

سمعها الكثيرون في أشباه جزرٍ نائية،
على سهول ناعسة، في جزر الصيّادين،
وفي قلب المدينة الجاحد:
سمعوها وهاجروا كالنوارس أو مثل بذور زهرة.

تعلّقوا كالبعرور بقطارات الإكسبريس الطويلة التي
تشقُّ دربها المتعرّجة عبر الأراضي الخالية من العدالة
عبرَ الليل، عبر نفق في جبال الألب؛
لقد طفوا فوق البحار، ساروا في المعابر، وجاءوا
ليقدّموا حياتهم.

في تلك الساحة القاحلة، تلك الشأفة المُقتلعة من
إفريقيا
الساخنة، الملحومة بهذه الفظاظة إلى أوربّا ذات

الاختلاعات
على ذلك المنبسَط من الأرض الذي يحفل بالأنهار
دقيقة وحيّة هي الأشكال المُنغَّصة التي تتخذها حمانا.

غدًا، ربّما، المستقبل: البحث العلميّ في أسباب الإصابة بالإرهاق
وحركات الحفّالين. الاكتشاف التدريجيّ لجميع مراتب الأشعّة الراديويّة؛
غدًا، توسيغ الوعي عن طريق التنفس والتغذية المحسنة.

غدًا إعادة اكتشاف الحبّ الرومانسيّ؛ التقاط صور
فوتوغرافيّة للغرباء؛ كلُّ ما يُطالُ من متعة
تحت ظلّ (الحرية) الذي سَيسود؛
غدًا ساعةُ سيّد المواكب والموسيقار.

غدًا، في سبيل الشباب، انفجار الشعراء كالقنابل،
السير بجانب البحيرة، شتاء التخاطب الكامل:
غدًا سباقُ الدراجات عبر الضواحي
في المساءات الصائفة: لكن اليوم الجهاد.

اليوم الزيادة التي لا مفرّ منها في فرص الموت؛
القبول الواعي للذنب في واقعة الجريمة؛

اليوم بذل الطاقات
على المنشور السرابيّ المسطّح والإجتماع الممل.

اليوم أشكال المواساة المرتجلة؛ السيجارة المشتركة،
لعب الورق في الحرن الفنار بالشموع وحفلة الموسيقى المتجرجرة،
التكات الرجولية؛ اليوم
العناق المتعجّل الذي لايفي، قبل أن يأتي الألم.

لقد ماتت النجوم؛ الحيوانات لاتريد أن ترى؛
تركونا وحدنا مع نهارنا، والوقت قصير والتاريخ
قد يأسف على المهزومين
لكنه لا يستطيع أن يعينهم أو يقدم لهم الغفران.

شاهدة على قبر طاغية

الكمال، من نوعٍ ما، كان ما يسعى إليه
ويسهل علينا أن نفهم ما لفقه من الأشعار؛
كان خبيرًا بسقطات البشريّة كما بظاهر يده
شديد الاهتمام بالجيوش والأساطيل؛
وكان إذا ضحك، قهقه أعضاء مبجّلون في مجلس الشيوخ
ومات الأطفال في الشوارع، إذا بكى.

في ذكرى و. ب. ييتس

١

في قرّ الشتاء، اختفى.
كانت الغدران متجمّدة، والمطارات مقفرة تقريبًا
والثلج يشوّه هيئة التماثيل العموميّة؛
في فم النهار المتحضر، كان الزئبق يتدنّى.
كلّ أجهزة القياس لدينا
تجمع على أنّ نهار موته كان نهارًا مظلمًا شديد البرودة.

بعيدًا عن علّته
كانت الذئاب تركض عبر الغابات الدائمة الخضرة،
والمواني‌ء الحديثة الطراز لم تكن تغوي نهر الفلّاحين.
إنّ موت الشاعر مَنِعَ من قصائده
بواسطة ألسنة يجلّلها الجداد.

لكنّ بالنسبة إليه كان هذا آخر مساء هو نفسه فيه،
مساء المفرضات والإشاعات:
ثارت أقاليم جسده،
فارغة ساحاتُ عقله،
فالصمت غزا الضواحي،
وتيارُ شعوره انقطع: لقد صار هم؛ مُعجبيه.

هو الآن مبعثرٌ بين مائة مدينة
ومكرّس بشكل كامل لاهتمامات غير مألوفة:
أن يجد سعادته في غابة من نوع آخر
وأن يعاقب بمقتضى قانون أجنبي للضمير.

إن كلماتِ رجل ميّت
يتم تحويرها في أحشاء الأحياء.

ولكنْ في فخفخة الغد وضجيجه
عندما يزأر الصيارفة كالوحوش على أرضيّة البورصة
وللفقراء آلام اعتادوا عليها بعض الشيء، الآن
وكلّ في زنزانة ذاته مقتنع بحريّته تقريبًا:
بهذا اليوم ستفكّر بضعة الاف
كما يفكر الإنسان بيوم فعل فيه شيئًا غير عاديّ.
كلُّ أجهزة القياس لدينا
تجمع على أنّ نهار موته كان نهارًا مظلمًا شديد
البرودة.

٢

كنت طائشًا مثلنا. لكن هبتك أنت كتب لها الدوام.
أبرشيّة النساء الثريّات، التحلّل الساري في البدن،
وأنت نفسك، حتى تقول الشعر، كان على إيرلندا
المخبولة أن تُسقيك الأذى.

لإيرلندا خبالها الآن، وطقسها ما زال لها،
لأنّ الشعر لا يجعل شيئًا يحدث: إنه يدوم
في وادي قوله حيث رجال الأعمال لن يودّوا
أن يتطرّقوا مطلقًا. إنّه يجري إلى الجنوب
من مزارع حافلة بالعزلة ومشغولة بأحزانها،
من دساكر فجّة نؤمن بها ونموت فيها. إنه يدوم،
طريقة في الحدوث، فقط.

٢

استقبلي، أيتها الأرض، ضيفك المجيد.
ها إنّ وِلْيم ييتس قد سجّي ليستريح.
دعوا أهراء إيرلندا
تظلّ فارغة من شعرها.

الزمانُ الذي لا يطيق
الشجعان ولا الأبرياء
وبعد إسبوع لا يبالي
بالقامة البديعة التكوين
إنّما يتعبّد للغة
ويغفر لكلّ من تحيا به:
يسامح الجبن، والخداع
ويطرح أمجاده عند قدميها.

الزمان الذي غفر لكبلنغ وآرائه
بهذا العذر الغريب
وسيغفرُ لبول كلوديل،
سوف يغفر له هو لإجادته الكتابة.

في كابوس الظلام
تنبحُ كلّ كلاب أوربّا
وتنتظر الأمم الحيّة
متحضنة، كلّ منها، بأحقادها.
في كلّ وجه بشريّ
يجابهنا عار العقول
وتمتدّ جامدةً في كلّ عين
بحار المراثي.

تابعْ، أيها الشاعر، طريقك،
تابعها حتى قرارة الليل
وفي صوتك الطليق
أقنعنا، ثانيةً، بالاستبشار.
بقصيدة تزرعها
حوّل اللعنة إلى كرمة،
غنّ عن خيبة الإنسان
بنشوة لا تخلو من الأسى.

في صحارى القلب

دع النبع الشافي يتدفق:
وفي سجن أيامه
دع الأنسان الحرّ يعرف الحمد.

السفينة

جميع الشوارع تتلألأ بالأنوار؛ مدينتنا دائمًا نظيفة.
ركّاب الدرجة الثالثة يلعبون القمار بأوراق دبقة، ومن في الأولى
يضاعفون الرهان؛ فقراؤها المنفيّون إلى العنابر لم يروا أبدًا
ما يمكن القيام به في قاعات الاستقبال. لا أحد يسأل لماذا.

العشاق يكتبون الرسائل، الرياضيون يلعبون الكرة
واحد يرتاب في عفاف زوجته، أما الثاني
ففي جمالها. ثقة صبي طموح. ربما كان القبطان
يكرهنا كلّنا؛ لعلّ هناك أحدًا يعيش حياة متحضّرة.
إن ثقافتنا الغريبة، مزدانةً بكلّ أبهتها
تتقدم، بطيئة، على البطاح المقفرة لثقة بحر.
شرق مننّ، دواجن وأزهار ذات أشكال غريبة، ثياب أكثر غرابة.
إنّ غدًا غريبًا، في مكان ما، ينام
مهيئًا امتحانًا للرجال الآتين من أوربا
وليس لأحد أن يخمّن من سيحظى بالعار كلّه، من يزداد
تراؤه، أو من يموت.

سفارة

عندما هبط المساء، انقشع وطءُ النهار؛
بدت للعيان قمم نائية: لقد أمطرت السماء.
وعبر جنائن واسعة وأزهار مشذّبة كانت تتهادى
محاورة تدور بين الخبراء ذوي المقام.

راقبهما بستانيان كانا يسعّران ثمن الأحذية؛
سائق خصوصي ينتظر، قارئًا جريدة، في المجاز
أنْ ينتهيا من تبادل وجهات النظر؛
كانت تبدو مثالًا للحياة الخصوصية.

وبمعزل عن نواياهم، في البعيد
كانت الجيوش تنتظرُ غلطة في الكلام
بكلّ الأدوات التي تسبّب الآلام.

وعلى سحرهما اللبق كانت تعتمد
أرض مدمّرة، ذُبح شبّانها جميعًا،
نساؤها تبكي، والرعب يحتلّ قراها.

شاعر القبيلة

كان خادمًا لهم - هناك من يقول إنه كان أعمى
يتنقّل بين وجوههم وأشيائهم
حتى كانت عواطفهم جياشة فيه كالريح
وغنّت، ثم صاحوا - «ما هذا الذي يغنّي، سوى إله»،

وتعبّدوا له، وضعوه في مصاف له وحده،
وأشبعوه غروزًا حتى أنّ هنّات عقله وقلبه الصغيرة،
لدى أيّ مشكل منزلي طارئ،
كان يحسبها غناء.

لم تعد تأتي الأغاني: كان عليه أن يصنعها.
بأيّة دقّة كانت كلّ عبارة مرتبة.
لقد عانق أحزانه مثل قطعة أرض،

وسار في المدينة مثل سفاح،
وكان ينظر إلى البشر فلا يودّهم،
لكنه يرتعش إذا مرّ به أحدهم وهو عابس.

رامبو

الليالي، أقواس محطات القطار السماء الفاسدة
وأصحابه السمجون لم يكونوا على دراية
لكنّ أكذوبة البلاغة انفجرت مثل أنبوب
في ذلك الطفل: لقد خلق البرد شاعرًا.

كؤوس الشراب التي اشتراها له
صديقه الغنائيّ الضعيف، خلخلت بشكل منظّم
ملكاته الخمس، واضعة حدًا للهراء المألوف
حتى اغترب عن كلا الضعف والقيثار.

كان الشعر مرضًا خاصًا بالأذن،
أما النزاهة فلم تكن كافية. بدا أنّ هذا
هو جحيم الطفولة: عليه أن يحاول من جديد.

والآن وهو يخبّ عبر أفريقيا
كان يحلم بنفس جديدة، بابن له يكون مهندسًا
حقيقته مقبولة لدى البشر الكاذبين.

فولتير في «فيرني»

سعيدًا تقريبًا، الآن، نظر إلى أراضيه:
منفي يصلّح الساعات رفع أنظاره حينما عبر
واستمرّ يشتغل؛ حيث كان مستشفى يعمّر قد علا بسرعة
لمس نجّار قلنسوته؛ جاء وكيل ليخبره
بأنّ بعض الأشجار التي غرسها تنمو باضطراد.
لمعت جبال الألب البعيدة. كان الوقت صيفًا. كان جدّ عظيم.

بعيدًا في باريس، حيث يتهامس أعداؤه
بأنّه شرّير الطبع، في كرسيّ مستقيم
كانت عجوز عمياء تحنّ إلى الموت والرسائل.
كان يكتب: «لا شيء أفضل من الحياة». ولكن هل الأمر هكذا؟
نعم، كانت المعركة جديرة بالخوض ضدّ كلّ ماهو زائف
وغير عادل، دائمًا، كذلك كانت البستنة. التحضّر.

متزلّفًا، مؤبخًا، مخطّطًا، أدهاهم جميعًا
كان قد قاد الأطفال الآخرين في حربٍ مقدّسة
ضدّ الكبار الشائنين، ومثل طفل، كان ماكرًا
ومتواضعًا عندما تكون هناك مناسبة
للجواب ذي الوجهين أو الأكذوبة العاديّة التي تحمي.

لكنّه كان بانتظار سقوطهم صبورًا مثل فلّاح.

ولم يشك أبدًا، مثل «دالمبير»، في أنّه سينتصر.
«باسكال» وحده كان العدوّ العظيم، أمّا البقيّة
ففئران سَرى السمّ فيها منذ الآن، على أنّ الكثير مع هذا
مازال بحاجة إلى التنفيذ ولا أحد، غيره هو، يُعتمد عليه.
كان «ديدرو» العزيز بليدًا لكنه قام بما يطيق.
«روسّو»، كما كان يعرف دومًا، سيثرثر ثم يستسلم.

لذا، كالخفير، لايمكنه أن ينام. كان الليل
مليئًا بالضيم، بالزلازل والإعدامات؛ سرعان ما سيموت
وما زالت الممرّضات الفظيعات على رأس أوربّا
يتحرّقن لغلي أطفالهنّ وربّما كانت أشعاره وحدها
قادرة على إيقافهنّ: عليه أن يمضي في العمل. وكانت النجوم
التي لاتشكو، فوق الرؤوس، تؤلّف أغنيتها الصافية.

لوثر

بضمير مشدود كالزناد يصغي إلى الرعد،
رأى الشيطان منشغلًا في الريح
فوق أبراج الكنائس بجلجلة أجراسها وأيضًا
تحت أبواب الراهبات والاطباء الذين اقترفوا الخطيئة.

أيّ جهاز يمكنه أن يحمينا من الكوارث
أو يشذّب أخطاء البشريّة، كالعلّيق؟
كان اللحم كلبًا صامتًا يعضُّ سيّده،
والعالم غديرًا ساكنًا يغرق أبناؤه فيه.

واشتعلت في رأسه فتلة العقاب:
«إلهي» فلتطرد هذه الحشرات المُغشّلة من قفيرها
بالدخان؛ كلّ الجلائل والكتب، كلُّ العظماء، كلُّ
المجتمعات فاسدة.
بالإيمان وحدهُ سيحيا العادلون.» صاح بصوت مخيف.

واستبشر الرجال والنساء في العالم بهذا،
هم الذين لم يولوا انتباهًا في حياتهم يومًا، ولم يرتعدوا.

شاهدة على قبر الجندي المجهول

من أجل أن تنقذوا عالمكم، طلبتم من هذا الرجل أن يموت.

هل لهذا الرجل أن يسأل، لو قُدّر له أن يراكم الآن، لماذا؟

المسافر

حاملًا أمام وجهه المسافة،
وواقفًا تحت الشجرة المميّزة،
يبحث عن المكان العدائي اللا أليف،
ويحاول أن يرى الغابة.

في الأرياف حيث لا يطلب منه اللقاء،
ويقاتل بكلّ قواه ليكون كما هو،
«الواحد الذي يحبّ واحدة في البعيد»
وله بيت، ويحمل أسم أبيه.

مع ذلك فهو وما له، دومًا، هما المتوقّعان.
الموانئ تؤثّر فيه إذ يغادر الباخرة:
«الناعم، الجميل، السهل على القبول».

المدن تحمل شعوره مثل مروحة،
وتفسح له الجموع دون تمتمات،
كما أن الأرض صبورة مع حياة البشر.

فرضيّة عقلانيّة مسبقة

محظوظ هو الأرنب في الصباح، فهو لايستطيع أن يقرأ
أفكار الصيّاد، محظوظة هي الورقة
في عجزها عن التنبؤ بالسقوط، محظوظ حقًا
هو الهلام المتألم المختنق، ذاك الذي
يتبرعم في غدران، إذ يلعق جريش الصحراء
ولكن ماذا يفعل الإنسان، هو الذي بوسعه أن يصفر ألحانًا
حفظها، يعرف أنه انتهى عندما يقاطعه الموت بثأرًا
كصرخة الزمّج،
ماذا بوسعه أن يفعل غير أن يدافع عن نفسه ضدّ معرفته؟

كم مؤنسة أماكن ملاذه ومعابده المخصّصة للسلام،
الكتب الجديدة على طاولة الصباح، الجنينات الصغيرة
وشرفات الضحى.
ها هي ذي الملاعب حيث يمكنه أن ينسى جهله
ليتصرّف ضمن معاهدة فاضلة بين سيّدين:
هنا، بمقتضى إجازة معيّنة
يُسمَحُ باثنتين وعشرين خطيئة.
هنا الأيائك حيث يمكن للعاشقين الملاحقين
في جهادهما، أن يدفنا بعضهما بأيديهما الشقيّة،

هنا جاذات للإنشاد وحوانيت للنقّاشين المهرة.
المقاصير مليئة بالموسيقى، عازف البيانو يعصف بالمفاتيح،
عازف «التشيلو» العظيم مصلوب على آلته
من اجل ألّا يسمع ثقة أحد إفرازات القلاع المحصّنة
ولا آهات الأكثر عددًا والأشدّ فقرًا: صوت ارتطام أجسادهم الساقطة
هم الذين ضحّوا بحياتهم من ذلك الحين، ليطردوا عنهم الثعبان، والحشرة العديمة الوجه.

درع آخيل

تطلّعت من فوق كتفه
باحثة عن الكروم واشجار الزيتون،
عن مدن من رخام لها حكّامها الراشدون
وسفن تمخر بحارًا غير مروّضة
لكن هنالك على المعدن الوهّاج
وضعت يداه بدل ذلك
برية صناعية
وسماء من رصاص.

قفراء لا سيماء لها، داكنة وجرداء
لاعشب فيها، ما من دليل على الجيرة
لا كلأ يقيت ولا مكان يغري بالراحة
ومع ذلك كان جمع لا يمكن تمييزه
يكتظ واقفًا في خلائها:
كانت مليون عين، مليون جزمة
تصطفّ، دون تعبير، بانتظار علامة.
صوت لا وجه له أثبت لهم من الهواء
بنبرات جافّة مسطّحة تماثل المكان
أن قضيّة ما عادلة، مستشهدًا ببعض الإحصائيات:
لم يهتف أحد، ولا بث في قرار
بل استأنفوا مسيرتهم مكابدين إيمانًا
أودى بهم منطقهُ، في مكان آخر، إلى الشجن
كتيبة بعد كتيبة، في سحابة من الغبار.

تطلّعت من فوق كتفه
باحثة عن شعائر الخير والولاء
عن عجول مكلّلة بأزهار بيضاء،
عن الأضاحي والقرابين
لكن هنالك على المعدن الوهّاج
حيث ينبغي للمذبح أن يكون
رأت مشهدًا آخر تمامًا
على هُدى الضياء المنبعث من بوتقة الحدّاد.

بقعة مشاع تطوّقها الأسلاك الشائكة
حيث يتمدّد موظفون برمون (أحدهم ألقى بنكتة)
ويزشح الحرّاس عرقًا فساخن هو النهار
جمهرة من الناس العاديّين كانت تتملّى من الخارج
باحتشام دون حركة أو كلام
بينما تساق ثلاث قامات شاحبة إلى الأمام
وتقيّد إلى ثلاثة أعمدة غرست باستقامة في الأرض.

إنّ جسامة هذا العالم وجلاله، إنّ كلّ ما
له ثقل، ويزن دائمًا نفس المقدار
كان في أيدي الآخرين: أما هم فكانوا ضئالًا
لاأمل لهم بالنجدة، وما من نجدة خفّت إليهم.
ما شاء أن يجني به عليهم الأعداء
جنوا به، وعارهم صار منية الشرّير. لقد فقدوا

الكبرياء
وماتوا قبل أن تموت أجسادهم، كالرجال.

تطلّعت من فوق كتفه
باحثة عن رياضيين منهمكين بألعابهم
عن رجال ونساء
يهزّون أعطافًا وسيمة راقصين
بسرعة على إيقاع الموسيقى
لكن هنالك على الدرع الوهّاج
لم تضع يداه حلبة للرقص
بل حقلًا تخنقه الأشواك.
غلام متشرّد يلبس الخرق
كان يتسكّع وحيدًا، بلا هدف، في ذلك اليباب.
عصفور طار محلّقًا، من حجره البارع التصويب، نحو الأمان.
أن تغتصب العذارى، أن يطعن صبيان ثالثًا بسكّين؛
كانت هذه بالنسبة إليه بديهيات
هو الذي لم يسمع بأيّ عالم وفيت فيه الوعود
أو أنّ الواحد يبكي لأنّ الآخر بكى.

ابتعد صانع الدروع،
هيفستوس، وهو يعرج
وأطلقت ثيطس ذات الثديين الوضّاءين
صرخة استياء

على مرأى ما صاغه الإله
لإرضاء ابنها، آخيل القويّ
ذي القلب الحديد، سفّاح الرجال
هو الذي لن يكتب له طول البقاء.

أسلاك شائكة

عبر الساحة،
بين المحاكم القانونية المحترقة ومركز الشرطة،
بعد اجتياز الكاتدرائية المخرّبة أكثر من أن يمكن تصليحها،
حول «الفندق الكبير» المرمّم ليؤوي مخبري الصحافة،
قرب أكواخ ثقة جمعية للطوارئ،
خلال المدينة المدمّرة، تجري الأسلاك الشائكة.
عبر البراري،
بين تلّتين، قريتين، شجرتين، صديقين،
تجري الأسلاك الشائكة لاتحاجج، لاتشرح شيئًا
لكن حيثما أُغرمتْ بمكان، انتهت طريق، سكّة قطار
والفكاهات انتهت، والأطعمة، والطقوس، والمذاق
وشكل المدينة وتصميمها، كلّ هذا يمّحي.

عبر نومنا أيضًا
تجري الأسلاك الشائكة: إنّها تجعلنا نتعثّر فنسقط هكذا
وتبحر من دوننا، رغم أنّ آخرين هم الباكون، مراكب بيضاء
إنّها تشكّل ورقة التين اليابسة على أجسادنا في المساخر
تقيّد إلى السرير المزدوج ذاك الذي ابتسم

ولاتكفُّ عن الإيراق من رأس الساحرة.

خلف الأسلاك
أي خلف المرآة، «صورتنا» هي ذاتها
سواء في الحلم أو اليقظة: إنّها لاتملك شكلًا يعجبنا،
لا عمر لها، ولا جنس، لا ذاكرة، لانسل، ولا اسم لها؛
يمكن تعدادها، مضاعفتها، توظيفها
وفي أيّ مكان، في أيّ زمان. تدميرها.

هل هي صديقة لنا؟
لا، ذلك أمل لدينا، أن نبكي فلا تأخذها هي الشفقة،
لأنّ الأسلاك والخرائب، بالنسبة إليها، ليست هي النهاية.
هذا هو اللحم الذي منه صنعنا لكننا قطّ ما آمنّا به
اللحم الذي نموته لكنّه موت للشفقة؛
هذا هو آدم بانتظار «مدينته».

نصب تذكاريّ للمدينة

على عالم هوميروس، وليس عالمنا
تنفتح عينا الغراب وعين الكاميرا: إنها أولًا وأخيرًا
تجسّم الأرض، الأمّ المذعنة
للبشر والآلهة. لئن كانت تلاحظ أيًّا منهم،
فإنها ملاحظة عابرة: الآلهة تسلك نهجها، البشر يموتون.
وللكلّ طريقه، لكنها «هي»
لاتفعل شيئًا ولا تكترث:
إنها وحدها، بجذ، هناك.

الغراب الجاثم على مدخنة الفرن
والكاميرا التي تحوم في ساحة القتال
يسجلان فضاء ليس فيه للزمان، مكان:
قرية تحترق على اليمين، حيث يطلق الجند الرصاص
وفي سوق مدينة على اليسار
ينفجر العمدة باكيًا، ويقاد الأسرى إلى المعتقلات
بينما تغرق حاملة النفط في البعيد، في بحر ساكن
لا يُريم
هكذا تحدث الأمور: إلى أبد الآبدين
تسقط زهرة الخوخ على الموتى، ويغطي هدير الشلال
على صرخات المجلودين وآهات العشّاق
ويجبلُ الضياء الصلد البزاق

لحظة بلا معنى في واقعة أبدية
يختفي بها ساع وهو يصفر في شعبة الأرشيفات:
الواحد يستمتع بالمجد، والآخر يكابد العار.

عينا الغراب الثابتتان وعين الكاميرا الصريحة
ترى بالقدر الذي يمكّنها من الأمانة، وحتى الآن، في هذا الليل
بين خرائب المدينة الما بعد- فرجيلية
حيث ماضينا فوضى من القبور، وتمتد الأسلاك الشائكة
في مستقبلنا على مدى البصر، حتى تختفي عن الأبصار
حزننا ليس إغريقيًا: فبينما ندفن موتانا
ندري دون أن ندري، أنّ هناك سببًا لعبثنا هذا
أنّ آلامنا ليست هجرانًا، أنّ علينا ألّا
نرثي لأنفسنا أو مدينتنا:
أيًا كان من ضبطته الأنوار الكاشفة،
أيًا كان ما تلعلع به مكبّرات الصوت
لن يتمكّن منّا اليأس.

مثلَ مهمّة

لا مثل نابليون الأحلام، رعب الاشاعة ومركزها
الذي أمام موكبه تنقسم الحشود
هو الذي يدشّن نصبًا وينسحب،
لا مثل ذلك الجنرال المحبوب والزائر المتسرّع
الذي يعني المناخ كثيرًا بالنسبة إليه كما الخرائب،
ولا مثل أولئك الذين سيرحب بهم دائمًا،
عن سبيل الحظّ أو التاريخ أو الترفيه،
لا تدخل مثل هؤلاء: فهؤلاء كلهم يذهبون.
طالب، يقينًا، بحقّ الغريب في المسرّات.
لا شك أن السفراء
سيرفّهون عنك بمدى تبحرهم في الأوبرا أو البشريّة،
يسألك عن رأيك الصيارفة
وخدّ الوريثة يميل في اتجاهك بأخفّ ما يكون،
الجبال تقبل بوجودك ومثلها أصحاب الدكاكين
وجميع نزهاتك ستكون مجانيّة.
لكن التهذيب والحرية لا يكفيان مطلقًا،
ليس إن أردنا الحياة. إنهما يقودان الى سرير
لا يمتّ، إلّا بالمظهر، للزواج،
حتى الإعجاب المنظّم والنائي
من قبل الآلاف التي لا تريد شيئًا كما يبدو
يصبح علّة زريّة لا أكثر: لهؤلاء نجاحهم المتواضع،
إنهم يوجدون في الساعة المتلاشية.
لكن في مكان ما دائمًا، في مكان شبه اعتياديّ

أيّ مكان تقريبًا وسط مشهد الماء والبيوت
يقف دائمًا ذاك الذي يحتاج اليك، وبكاؤه
ينافس دونما نجاح بكاء المواصلات أو الطيور
ذلك الطفل الخيالي المذعور الذي لا يعرفك إلا
على أنك ما يسقيه الأعمام وهمًا
من الأوهام.
لكنه يعرف أن عليه أن يصير المستقبل وأنّ الضعفاء
وحدهم يرثون الأرض، ولا هو بالجذّاب
ولا الناجح، ولا يفتن أحدًا،
وحده من وسط ضجيج وانشغالات الصيف
يتسلّق بكاؤه نحو حياتك صاعدًا مثل مهمة.

رحلة البحر

أي مشارف تتطلع إليها الرحلة ويجسدها الرقيب
من على رصيف المرفأ تحت نجمة نحسِهِ بهذه المرارة؟
عندما تسبح الجبال بضربات هادئة بطيئة إلى البعيد
وتنكث النوارس بإيمانها؟ هل ما زلت تعد بحياة أكثر عدالة؟
ووحده مع قلبه أخيرًا، هل يجسد المسافر
في لمسة الريح الأكثر غموضًا وخطفة اللمعان العابث للبحر
براهين على أن المكان الصالح له وجود حقًا في ثمة مكان
أكيد كتلك التي يعثر عليها الأطفال بين التجاويف والحجارة؟
كلا، إنه لا يشكف شيئًا. لا يريد الوصول.
زائفة هي الرحلة، إن الرحلة زائفة حقًا مرض
على الجزيرة الزائفة حيث القلب عاجز عن الفعل ولا يعرف الألم
إنه يسوغ الحمى وهو أضعف مما كان يظن أن ضعفه حقيقي
لكنه في لحظات كما عندما تثب الدلافين الحقيقية
متزلفة إلينا لنقرّ بها، آنذاك
تنكسر انخطافة الغيبوبة. إنه يتذكر
الساعات، والأماكن التي كان فيها سليمًا، يؤمن بالفرح

وربما سيكون للحمى شفاء، الرحيل الحقيقي نهاية
حيث تتلاقى القلوب وهي صادقة حقًا: وتبًا لهذا البحر
الذي يفرق بين القلوب المتبدلة، لكنه نفسه، دائمًا، هو،
ويمضي إلى كل مكان، مزاوجًا بين الزائف والحقيقي
ولكنه لا يعرف الألم.

القانون الخفيّ

القانون الخفي
لا ينقض قوانيننا في الاحتمال
لكنه يأخذ كلًا من الذرّة والنجمة
والكائنات البشرية كما هي
وعندما نكذب عليه لا يجيب.

هذا هو السبب في أن كل الحكومات
تعجز عن تشريعة تمامًا
وما التفسيرات القانونية سوى وصمة
على وجه القانون الخفي.

إن صبره المطلق
لن يحاول أن يوقفنا إذا أردنا أن نموت:
عندما نهرب منه في سيارة
عندما ننساه في بار،
ما هذه كلها إلا طرق
يعاقبنا بها القانون الخفي...

عصر جديد

هكذا انتهى عصر ومات آخر مولّديه
بعد أن غدا شقيًا وخاملًا، في الفراش؛ لقد كانوا في أمان:
إن الظل الفجائي الذي تلقيه فخذة هائلة لعملاق
لن يسقط ثانية، في الغسق، على الجنينة.

ناموا بسلام: لا ريب أن تنينًا عاقرًا
في مستنقع ما، هنا وهناك، كان يتلكأ
بانتظار ميتته الطبيعية، لكن آثار الحيوان كانت
قد اختفت من السَبخة
وبدأ ارتجاج العفريت في الجبل بالخفوت.

النحاتون والشعراء، وحدهم، كانوا شبه حزانى
أما الحاشية المتعجرفة في منزل الساحر
فإنها ذهبت متذمّرة إلى مكان آخر، وكانت القوى المهزومة
مسرورة لانها غير مرئية وحرة: بلا ندم
صرعت أبناءها الذين تاهوا في سبيلها
وافترست البنات ودفعت إلى الجنون بالآباء.

الدرس

في المرة الأولى حلمت: أننا كنا هاربين
أوهن التعب قوانا؛ كانت هناك حرب أهلية،
واد ملئ باللصوص والدببة الجريحة.

وراءنا، كانت المزارع تحترق؛ وحين استدرنا إلى اليمين،
وصلنا في الحال إلى منزل عال، بابه مفتوح على مصراعيه
بانتظار الورثة الذين أطالوا الغياب.

على درج المخدع كان يجلس موظّف عجوز
كاتبًا شيئًا ما: لكننا كنا قد تسللنا عبره
عندما رفع رأسه وهمهم: "عليكما أن تذهبا"
بكينا، وتوسلنا إليه أن يسمح لنا بالبقاء:
مسح عويناته، تردد، ثم قال:
كلا، الأمر لم يكن في يده؛
إن حياتنا غير مرتّبة، وليس أمامنا سوى الذهاب.

* * *

بدأ الحلم الثاني في أيار، وسط غابة،
كنا نضحك، وكانت عيناك الزرقاوان رؤوفتين،
وعريك الممتاز لا شائبة فيه.

والتقت شفاهنا، متمنية الخير للجميع،

لكن النار والريح خطفتاك فجأة
حال التقائهما، وأطلقتاني ثانية

لأتيه في برية واسعة
تمتد بصمتها الميّت مسطحة وقاحلة
كالعظام
حيث لا يمكن لأي شيء أن يتألم، أو يزني، أو ينمو.

كنت أجلس على كرسي عال، وحدي
كسيّد صغير، أسأل لماذا
ينبغي للشيء البارد الصلد في يديّ
أن يكون
يدًا بشرية، إحدى يديك.

* * *

هذا هو الحلم الأخير: كان علينا الذهاب
إلى مأدبة كبيرة و"احتفال بالنصر"
بعد مباراة ما، أو ثمة امتحان خطير.
كانت أرائكنا من القديمة القرمزية، إذًا
يبدو أننا انتصرنا؛ ورغم ان الجميع كانت لهم تيجان،
كان تاجنا نحن من الذهب، ورقًا كل البقية.
كان كل ضيف شهير، إمّا وسيمًا أو حكيمًا أو ظريفًا
وكان "الحب" يبتسم "للشجاعة" عبر كؤوس
لا تقدر بأثمان،
والألعاب النارية تموت بالمئات لتعبّر عن

إهمالنا المدروس.
ثم عزفت فرقة، فهبّ بحر من التيجان الورقيّة
ليرقص على الأعشاب الخضراء:
وكان تاجانا أثقل من أن نشاركهم، فلم نرقص.

* * *

استيقظتُ، ولم تكوني هناك. لكنني وأنا ارتدي ثيابي
تحوّل قلقي إلى عار، شاعرًا بأن أحلامي الثلاثة
كانت كلها تنطق بملامة واحدة. إذ، ألم يحاول
كل منها بطريقته، أن يعلّم إرادتي في حبك
أننا إذا أردنا ذاك الذي يعطى لأي واحد
إذا أراده، فالأمر لا يمكن أن يكون، كما اظن،
ذا عاقبة كبيرة.

اقفزي قبل ان تنظري

لا ينبغي للحس بالخطر أن يختفي.
الطريق بالتأكيد شاقة وقصيرة،
مهما بدت متدرجة من هنا،
انظري إن شئت، ولكن لا بد لك من الوثوب.

ذوو العقول الراجحة يصابون في نومهم بالهشاشة
ويكسرون القوانين الهامشية التي
بوسع أي أحمق أن يطيعها، إنها ليست المألوف
بل هي خوف لديه ميل الى الاختفاء.

إن الجهاد القلق للجموع المنشغلة،
القذارة، التلبك، والبيرة
ينتج بضع نكات بائخة كل عام؛
اضحكي اذا استطعت، ولكن لا بد لك من الوثوب.

الملابس التي تعبر لائقة
لن تكون لا معقولة ولا رخيصة،
طلما قبلنا بان نحيا كالخراف
وان لا نذكر أولئك الذين يختفون.

عن نباهة المجتمع يمكن أن يقال الكثير،
ولكن أن نحتفل عندما لا يكون هناك أحد
أصعب حتى من البكاء،

لا أحد يراقبنا، ولكن لا بد من الوثوب.

عزلة تمتد عشرة آلاف فرسخ إلى الاغوار
تسند السرير الذي نرقد، يا حبيبتي، فيه
ورغم أنني أحبك، فلا بد لك من الوثوب،
لا بد لحلمنا بالأمان، من الاختفاء.

جزر

قديسون هرمون على أحجار الرحى
يعومون مع القطط صوب جزر بعيدة في البحر
حيث لن يتسنّى لعجيزة أنثى
أن تهدّد فضيلتهم، ويفغروا لها الأفواه.

ما وراء الذراع الطويلة للقانون
بالقرب من طريق لعبور الشاحنات
يتبع القراصنة في مخابئهم على الجزر
قانونا مشتركًا بين القراصنة.

التشديد على وسائل الحماية
يشيع بين الملوك.
صاحب الجلالة أسوة بالشعب
يختار لسجونه أن تكون في الجزر.

ذات يوم، حيث تقوم الآن بأعمال مهينة
كائنات أرضية برهن على وجودها
كانت تلهو أجناس أبيدت كاملة
لم يسبق لها أن قرأت "هوبز" في كتاب.

بعد أن انتهى من دماره القازي،
مضطجعًا على جرف جزيرة،
بقيت لنابليون خمس سنوات

يتكلم خلالها عن نفسه أخرى.

كم ساحرة هي الطبقة
التي عضوها الوحيد أنا.
سافو، تيبريوس، وأنا
نتبسط في الحديث على طوار البحر.

ما هو أكثر ترفًا من شاطئ
بحيرة مقلوبة على نفسها؟
كيف تسنّى لهولاء الآخرين
أن يتجرأوا على الخروج؟

إن عوراتهم، في العري
الشامل، مكشوفة
وسيعجزك أن تفرّق، إلا بالعمر
والوزن، بين المؤجر والأجير.

إنهم يمضون، هي تمضي، أنت تمضي، أنا امضي
إلى أعباء المعيشة في اليابسة،
أما الفلاح وصائد الاسماك، فيشكو كل منهما
من أن الآخر أسعد حالًا.

وحده

لكل عاشق نظريته الفريدة
في الفرق بين الآلام التي له
وهو مع الحبيب، أو وهو وحده.

عندما يحلم، لماذا يبدو له أن كل ما هو لحم
عزيز، وعظام تحزك الأحاسيس حقًا
صورة ملفقة من عنده، وهو يقظان؟

نرسيس لا إيمان له بالمجهول،
إنه عاجز عن الالتحاق بصورته في البحيرة
طالما يستخلص أنه وحيد.

الطفل، الشلال، النار، الحجر
تميل إلى الخداع دائمًا، أيضًا
وتعتبر الكون ملكًا لها، معطى.

المسنون، مثل بروست، دائمًا
عرضة لاعتبار الحب العوبة مصطنعة؛
تزداد وحدتهم، كلما أحبوا.

مهما كانت نظرتنا إلى الأمر ينبغي أن يُرى
لماذا يتمنى كلّ عاشق
أن يجعل نوعًا من الآخرية لنفسه.

ولعلنا، في الحقيقة، لسنا مطلقًا وحيدين.

المتسلّقون

هاربا من رؤساء الشركات المجانين ذوي الشعر الحليق،
من الوجوه الحزينة العاطلة التي تحوم حول بيتي،
أتسلّق جبالا ليست سوى خوفي أنا،
فوقي، صخرة ملتهبة تلوى عليها الرقاب، لا كهوف،
لا ممر، لا ماء، حين أرتّب أعذاري،
سرعان ما أسقط على "ألب" أكثر انخفاضًا وألهث،
مرؤوسًا تعبي في سقطات تتحدّى
ثقة حياة سرقوها منا، هم، وأكملوها.

التسلق معك كان سهلًا كأخذ القسم.
وصلنا غير جانعين إطلاقًا إلى القمهة
لكنها كانت عيونًا نظرنا إليها، وليش المشهد،
لم نر غير أنفسنا، أعسرين، ضائعين، معادين إلى
الساحل، وداخل البلاد بكل ما فيها من ثراء
ما زال مجهولًا لدينا: الحب أعطى السلطان لكنه أخذ الإرادة.

أسرار

أن يسعدنا دائمًا
عندما تقع الأميرة البشعة، إذ تفرّق الاشجار
لتكتشف ما يفرح أطفال الحطّاب، على خلية النحل
وأن لانشعر بالشفقة
عندما تحاصر العصابة المخبر الواشي في حمّام البخار،
أن نعوي ضاحكين عندما يقرر
أستاذ اللغات الآيسلندية ذو البصر الكفيف
أن الكتابة اليونانية المنقوشة في الحجر
لغز "روني" قديم يقدّم له، فيما بعد، ترجمةً:

ناعين بالإجماع أكثر غلطاتنا شيوعًا على أنها الأسوأ فينا؛
إذ آناء انتظرنا له في غرفته
سرعان ما نبدأ بتقليب رسائل الصديق،
أن نعيد، بكل يقين، قصة آخر
على أنها لنا، وأن نتبادل القبل يا حبيبتي
كم من المرّات، لنقول ما نريد، هذا كله لكي
يعرف لنا تمامًا ما نقصده من الحب: المشاركة في السرّ.

لكن النكتة، التي يندر أن نراها، على حسابنا
لأنها وحدها القلوب الوفية تعرفى كم لا يهمّها

السر الذي تحرص عليه:

شيء قديم، جديد، أزرق، مستعار،

أن اي شيء سيرضي الأطفال الذين

خلقوا على صورة االله ولذلك

ليسوا على شاكلة الآخرين، ليسوا كاصدقائنا الأعزاء

البليدين الذين، من فرط شقائهم، ما من شيء لديهم ليخفوه.

ولا هم، ولله الحمد، مثل أبينا كذلك

وهو الذي لا شيء يخفى عليه.

عالم شارف النهاية

لي هيئة وسيمة
ودرست في مدرسة أهلية عظيمة
ولديّ شيء من المال أوفّره
إذا لماذا أشعر أنني أحمق هكذا
كأنني في عالم شارف النهاية؟

لا ريب أن هنالك
سببًا وجيهًا يجعلك تشعر هكذا
لا عجب أنك قلق
لأنك بما لايقبل النكران
تسكن عالمًا شارف النهاية.

سأرمي بنقودي إلى المجاري
سأرمي بها كلها بعيدًا
سأرمي بها إلى حيث يلتقطها العقال
ولن يكون بوسع أحد أن يقول آنذاك
إنني أملك عالما شارف النهاية.

لن يحصل عليها العقال
حتى لو نثرتها في أطراف المدينة
بل سيجمعها صانعو الأسلحة
ويردونهم بها قتلى
لينقذوا عالمًا شارف النهاية.

في مصنع ما سأحصل على وظيفة
سأعيش مع الكادحين
سألعب في الحانة لعبة "السهام المريشة"
سأشاركهم أفراحهم وآلامهم
ولن أعيش في عالم شارف النهاية.

إنهم لن يبوحوا لك بأسرارهم
حتى لو اشتريت لهم كؤوس الشراب
مقابل نقودك سيسردون عليك الأكاذيب
لأنهم يعرفون أنك كما أنت
وتعيش في عالم شارف النهاية.

سأحجز قمرة في باخرة
سأمخر عباب البحر
سأقيم في ثمة جزيرة
حيث يحرّرني الأهالي
وأترك عالمي الذي شارف النهاية.

أكثرية الاهالي يحتضرون
لقد تمرّسوا من قبل بأمثالك
فلم يستمدوا لي رضى
وليست لديهم رغبة في المزيد
من باقايا عالم شارف النهاية.

ساؤجر علية مؤثثة
غرفة في الطابق الأعلى
أقضي صباحاتي في تأليف كتاب
يثير ضجة كبيرة
عن عالم شارف النهاية.

قد تكون عبقريًا صغيرًا
قد تبذل أقصى الجهود
لتقول لنا عن حضرة الموقّع
لكن أين الفائدة
إنّه ليس غير عالم شارف النهاية.

عندما يعظ الكاهن سأذهب للعبادة
سأعترف بكل خطاياي إلى القسّيس
سأفعل بالضبط ما يريدون
على الأقل سأذهب الى السماء
بعد أن يشارف هذا العالم النهاية.

لك أن تجلس تحت منبر الواعظ
لك أن تركع على ركبتيك
لكنك لم تعد تؤمن بهم
ولن يمنحوك السلام
فهم من هذا العالم الذي شارف النهاية.

سأمضي إلى المبغى
سأغرز إبرة في ذراعي
سأخرج بنفسي لأنهب أملاكي
آنذاك سأحسّ بالسكينة المطلقة
من عالمي الذي شارف النهاية.

لا يفيدك أن تتوسّل الاذى
لا يفيدك أن تتوسّل الصلاح
أنت كما أنت وما من شيء تفعله
سيخرج بك من الغاب
من عالم شارف النهاية.

تذكّر أنك لست جنديًا قديرًا
تذكّر أنك خائف
تذكّر أنك لن تنفع خلف المتاريس
فانت تنتمي إلى عالمك الذي شارف النهاية.

قد يكون ابنك بطلًا
يحمل بندقية فتاكة كبيرة
قد يكون ابنك بطلًا
لكنه بطل لن تكونه أنت
عليك أن تنهار مع عالمك الذي شارف النهاية.

عندما خرجت للنزهة ذات مساء

عندما خرجت للنزهة ذات مساء
أمشي على طوار النهار شارع "بريستول"
بدا لي أنّ الجموع على الرصيف
حقول من القمح مائلة للحصاد.

وبالقرب من النهر الفيّاض
سمعت عاشقًا يرفع عقيرته بالغناء
تحت اقواس المحطّة:
"«الحب ليست له نهاية،

سأحبّك يا عزيزتي
سأحبّك حتى تلتقي الصين بإفريقيا
و يكون للنهر أن يقفز فوق الجبل
ولأسماك السلمون، في الشارع، أن تغنّي

سأحبّك حتى تطوى
ثمّ تعلّق لكي تجفّ البحار
وتمضي سبع من النجوم
زاعقة كالأوزّ في أطراف السماء.

لأنّني أحمل بين ذراعيّ
"زهرة العصور"
وأول حبّ في العالم

ستجري السنين كالأرانب».”

بيد أن كلّ ساعة في المدينة
بدأت بالتململ والرنين:
”آه لا تدع الزمان يخدعك،
ليس بوسعك أن تقهر الزمان.

في بطون الكابوس
حيث العدالة عارية،
يراقبنا من مكانه في الظل
ويسعل عندما تحاول التقبيل، الزمان.

في الصدعات وفي القلق
تتسرّب الحياة، بشكل غامض، إلى البعيد
وسيكون للزمان أن يفوز اليوم
أو غدًا بما يريد.

في أكثر من واد أخضر
يتساقط الثلج عبر الظلام
الزمان يكسر حلقة الراقصين
وانحناءة الغطّاس المتلألة.

آه، غطّس يديك في الماء،
غطّسها حتى الرسغين،

حذق، حذق في المغسلة
واعجب لما ضاع من يديك.

الثلّاجة القطبيّة تقفقف في الدولاب
والصحراء تتأوه في السرير
السكر في قدح الشاي
يفتح ممرًا إلى أرض الاموات.

حيث الشحاذون يتلاعبون بالجنيهات
وينحسر بالعملاق "جاك"
أما الغلام الذي له بياض الزنبق، فعربيد
و"جل" تنبطح على ظهرها.

آه انظر، انظر في المرآة
انظر إلى بؤسك العميق
الحياة تبقى بركة
وإن أعجزك أنت أن تبارك.

آه، قف، قف بجوار النافذة
عندما تبدأ الدموع الحرّى بالجريان
إنّك ستحبّ بقلبك المحتال هذا
جارك المحتال."

تأخّر الوقت، تأخّر المساء كثيرًا

واختفى العشاق،
الساعات كفّت عن الرنين
وجرى النهر العميق.

سقوط روما

إلى سيريل كونولي

أرصفة المواني تدكّها الامواج،
وهناك في حقل وحيد
قطار مهجور يجلده المطر.
كهوف الجبال تمتلئ بالعصاة.

أثواب السماء تطول إلى مدى خرافي،
وعبر مجاري المدن الاقليمية
تطارد شرطة بيت المال
أشخاصًا تهرّبوا من دفع الضرائب.

الطقوس السحريّة ذات الفرادة
تصيب بغايا المعبد بالنعاس
ويحتفظ لنفسه بصديق خياليّ
كل فرد من أفراد الطبقة المتعلمة.

إن «كاتوس» بعقلانيّته المفرطة
قد يشيد بالعقائد المغرقة في الماضي،
لكنّ بحارة الأسطول ذوي العضلات
قد يعلنون العصيان، من أجل الطعام والراتب.

بينما ينعم القيصر بالدفء

في سريره الوثير
يكتب موظف تافه "لست راضيًا بعملي"
على ورقة ورديّة اللون، رسميّة.

وثقة طيور قرمزيّة الأرجل
هاجعة فوق بيوضها المغطّاة بالنمش
لو يقيّض لها أن تملك جاهًا، أو تفقه الرحمة
تحدج، باستياء، كل مدينة أصيبت بالزكام.

وفي مكان آخر تمامًا،
تنسلّ قطعان شاسعة من الوعول
عبر أميال وأميال من السرخس الذهبي،
بصمت وبسرعة شديدة.

السيّدة الباكية على مفترق الطرقات

سيّدتي، يا من تبكين على المفترق
هل تذهبين لملاقاة حبيبك
في الغسق
بكلاب صيده، والصقر الجاثم على قفّازه؟

ساومي الطيور إذًا على الأغصان
ساوميها لتظلّ خرساء
حذقي في الشمس حتى تختفي من السماء
ويسنح لليل أن يأتي.

ليالي السفر خالية من النجوم
وكئيبة ريح الشتاء،
اركضي والرعب يسد أمامك الطريق
ومن ورائك، الندم.

اركضي حتى تسمعي
صيحة المحيط الأبدية،
عليك ان تتجرّعيها كما هي
وإن كانت عميقة ومرة.

في أعمق زنزانة بالبحر
غالبي اصطابك حتى يرثّ ويبلى
باحثة عن المفتاح الذهبي

بين حطان السفن الغارقة.

اذهبي إلى نهاية العالم
وادفعي للحارس المرهوب بقبلة
لكي تعبري الجسر المسوّس الذي
يتطوّح فوق الهاوية.

هي ذي القلعة المقفرة
تبدو واقفة بانتظار أن تكتشف هناك
ادخلي، تسلّقي الدرج الرخامي
وافتحي الباب المغلق.

في قاعة الرقص الفارغة
مزي بصمت وقد تجاوزت الريبة والخطر،
انفخي على المرآة لتزيلي شباك العناكب
وتأملي نفسك اخيرًا.

ضعي يدك خلق الصدريّة،
لقد قمت بالمهمة،
جدي السكّين هناك واغرسيها
في قلبك الكاذب.

آه ما ذلك الصوت

آه، ما ذلك الصوت الذي يسحر الأذن هكذا
هنالك في أسفل الوادي، يقرع، يقرع كالطبول؟
الجنود ذوو البدلات القرمزية يا حبيبتي
لا أحد يتقدّم غير الجنود.

آه ما ذلك الضوء الذي أراه ينير بهذا الصفاء
يتوهج باهرًا، باهرًا في المسافة؟
الشمس فقط على سلاحهم يا حبيبتي
إذ يسعون نحونا خفافًا.

آه، ماذا يفعلون بكلّ تلك المعدّات
ماذا يفعلون في هذا، هذا النهار؟
مناوراتهم العادية فقط يا حبيبتي
او ربّما هو انذار.

آه لماذا تركوا تلك الطريق
لماذا يستديرون فجأة، لماذا يستديرون؟
لعله تغيير في الاموار يا حبيبتي.
لماذا تركعين؟

ألم يتوقفوا للعلاج عند الطبيب
ألم يربطوا أعنّة خيولهم، أعنّة الخيول؟
ولكن لماذا، ما من جريح بينهم يا حبيبتي

لا أحد في هذه القوات جريح.

آه أهو الكاهن الذي جاؤوا في طلبه
أهو الكاهن الأشيب، هل هو المطلوب؟
لا، فقد تجاوزوا بوابته يا حبيبتي
من دون أن يزار.

آه لا بدّ أنه المزارع القريب
لا بدّ أن يكون المزارع الماكر، والمكّار؟
لقد مرّوا بالمزرعة يا حبيبتي
وها هم الآن يركضون.

آه إلى أين تذهب؟ فلتبق معي
أم أن وعودك كلها لم تكن إلا سرابًا، محض سراب؟
كلّا، لقد وعدتك بالحبّ يا حبيبتي
لكن يتوجّب عليّ الذهاب.

آه إنهم يستديرون لدى البوابة، هناك يستديرون
لقد كسروا القفل وحطّموا الباب
وقع جزماتهم ثقيل على الارض
وعيونهم تقدح الشرار.

ميناء رئيسي

ما من إرشاد في الحكايات القديمة.
البنوك تتدافع للهيمنة في وضح النهار
وخلفها تمتد مثل شتول محزنة
في صفوف واطئة متماثلة، بيوت الفقراء.

ما من مصير قدر علينا،
لا دلائل عندنا غير أجسادنا. في نيتنا
أن نحسّن معيشتنا، ووحدها المستشفيات الكيئبة
تذكّرنا بالمساواة بين البشر.

الأطفال هنا محبوبون حقًا، حتى من قبل الشرطة
يتحدّثون عن أعوام سبقت "استيحاش الكبار".
لكن هذا لن يتكرّر هنا.

وحدها
الفرق النحاسية المجلجلة في المنتزهات
تشي بحكم قائم في المستقبل على السلام والسعادة.

نتعلم أن نشفق وأن نثور.

سوء تفاهم

تماما كما تنبأ في حلمه، قابلهم جميعًا:
الصبي البشام المغطى بالقذارة في المرآب
ركض خارجًا قبل أن يطلق الزمور: الروفسيور الفارع
ذو الجيوب القطنية الكبيرة المليئة بالنباتات
في الجبال، تجاسر على مخاطبته أسرع مما يتوقع بساعات،
الفتاة الطرشاء أيضًا، كان يبدو أنها تتوقع زيارته إلى قلعتها الخضراء؛
مُذ سبط للطعام، وامتلأت بالازهار غرفة الضيوف.

الأدهى، أن كلامهم دائمًا يتخذ المجرى المرغوب،
ويدور حول مدى الحاجة إلى ثمة إرشاد
ومع ذلك، في كل لقاء، كان مجبرًا على الإدراك
بأن نفس السوء في التفاهم، سيسود.
أيهم كان بحاجة إلى المعونة؟
هل هم من كانوا، الطبيب المداوي
أم هو، وكذلك العزيس، ومثير القلاقل الهذام؟

بروكسل في الشتاء

سارينا في الشوارع الباردة الملتوية كخيطان قديمة،
مصادفًا نوافير جمدها الصقيع،
تزوغ منك صيفتها. إنها فقدت ذال اليقين
الذي منه يتألف شيء من الاشياء.

الشيوخ، الجياع، أولئك الذين أذلّوا
وحدهم يحتفظون في هذا المناخ بحس المكان،
وفي بؤسهم ما يجمعهم،
إن الشتاء يحتفظ بهم مثل دار للأوبرا.

صفوف من شقق الأغنياء تطل من عل هذه الليلة
حيث تتألق كالمزراع نوافذ منعزلة
وتمضي العبارة معبأة كالعربة بالمعنى،

نظرة واحدة تحتوي تاريخ الإنسان،
وخمسون فرنكًا تخوّل حقًا للغريب
في أن يأخذ المدينة المرتجفة بين ذراعيه.

مونتين

خارج نافذة المكتبة يمكنه أن يرى
مشهدًا لطيفًا تخرّبه مسائل البلاغة،
مدنا فيها التأتأة إجبارية، وأقاليم
إن تلعثمت فيها، كان عقابك الموت.

كان السّمان يتمدّدون بطرين، أكثر خمولًا
من ان يأبهوا. لزم أن يأتي
هذا المحافظ المقلّ في الجنس ليبدأ الثورة
فيعطي للحم سلاحًا يهزم به «الكتاب».

عندما تدفع الشياطين بالعقلاء الى الهياج
يجرّدون عصرهم الراشد من كل شيء، ولعريه
ينبغي للحبّ أن يزرع ثانية بدءً من شهوانية
الأطفال.

أن نرتاب يصبح طريقة في التعريف
وحرفة الأدب نفسها شرعية كالصلاة،
والخمول حركة نادمة.

الشمس تشرق على المراكب في البحر

الشمس تشرق على المراكب في البحر
إنها تشرق عليك وكذلك علي
أيًا كنا أو سوف نكون.

غدًا إذا سار كل شيء كما يرام
غدًا صباحًا ستكون رجلًا.
دع الأماني تكن خيولا بأسرع ما يكون.

الكلاب تنبح، وتنمو المحاصيل
لكن لا أحد يعرف اتجاه الريح.
تبًا لنا، فمظهرنا لا يوحي بالكثير،
إذ يبدو أن التاريخ عقد صفقة سيئة.

ليس لدينا الوقت - فما أسرع الامور -
سوى للاهتمام باندفاعاتنا الصغيرة.
إنّ المعلم الذي يرتّب الامتحانات،
الصحفي الذي يلفّق أكاذيبه،

الشاعر الذي يتلو على السيدة ديانا
بينما يهمس الخادم. «تفضّل هذه الموزة»،
القاضي الذي يطبق القانون البائد
الصرّاف الذي يمنح القروض للحرب،

الخبير الذي يصمم المدفع البعيد المدى
لإبادة كل من يوجد تحت الشمس،
يريدون كلهم ان يتملّصوا لكنهم فقط يتمتمون:
«ماذا أفعل؟ إنها لقمة عيشي.»

في بيتك، الليلة، أنت مرح وسعيد،
لقد مرّت إحدى وعشرون سنة.
صباح غد، يوم آخر.

لو لم نستطع أن نحب، حتى لو كنا على بعد أميال
لو لم نستطع أن نثق بكل قلبنا،
لو لم نستطع أن نفعل هذا، فالويل لنا.

في زمن الحرب

راكبًا عجلته الرثة بشكل مباغت،
انطلق القدر هائجًا إلى البعيد، وها أن الفوضى
لكي تفجعنا، أناخت علينا اليوم بعبئها الثقيل.

تلك المفازع العرضية، المجاعة، الطوفان
لم تكن الغاية منها أبدًا، أن تشخص أو تشفي
كوابيس كانت مقصودة وحقيقة.

لا الشهوة ولا الجاذبية يمكنها أن تعظ بثقة غاية
لعقول مضطربة تخشى برعب واضح
أن تفقد رؤوسها إن هي بحثت عن السلام.

ولا ستصفر المياه الحية. فرغم أن العرّافين
يقطعون خناجرهم ليبرهنوا على دعاواهم
تبقى مجدبة هي الصحراء.
لو أن الغيلان حلّقت طائرة
لتحقّق المصاب الذي به تنبأوا، فلا بد أن الامر هكذا:
لا يملك مالك الحزين لافتة حديثة تقول «لا».

لو أن الحرب الشاملة هي وحدها
ما يمكنه أن يقلب موازين المشيئة الوثينة
ووهمها بأن العزلة شيء يمكن دحره
وأننا على حق في اختيارنا لالامنا

وعذابنا بين «أما» و«أو»،
الحق في الفشل الجدير بالموت من أجله

لو أن الأمر هكذا، فحلاوة النصر، كالروم، سائغة:
مدن في الارض يعتزّ بها، تفترض الحياة الباطنية
على أنها، اجتماعيًا، هي الموضة

حيث القانون، حتى بالنسبة إلى المحامين،
ليس سوى ما تصيره أيماننا، سواء لخير أو لسوء
عندما لا يرانا أحد نحتاجه و«الوطن»
نوع من الشرف، لا موضع يجري بناؤه،
عندما، لو اخترنا، حيثما كنا، يمكننا أن نكون
في مكان آخر تمامًا، واثقين مع ذلك من صحة
اختيارنا.

الموسيقار

كل الآخرين يترجمون. الرسّام
يخطط عالمًا ظاهرًا نحبّه أو نرفضه،
مخربشًا في حياته، يطلع الشاعر علينا بتلك الصور
التي تؤذي وتمدّ الروابط،

من «الحياة» و«الفن»، بعد أن صاغها بألم
معتمدًا علينا في تغطية الثغرة،
نوطاتك وحدها كمين خالص،
غناؤك وحده عطية مطلقة.

اسكبي لنا حضورك، غبطة تنحدر
على مساقط الركبة وأرصفة العمود الفقري
غازية مناخنا الملئ بالصمت والريبة.

أنت وحدك، وحدك أيّتها الأغنية الخيالية
لن يكون لك ان تقولي بأنّ وجودًا ما خطأ
وتسكبين غفرانك مثل خمرة.

الرحلة

أن يقذف الواحد بالمفتاح ويغادر،
لا المنفى المباغت، إذ يستفسر جيران عن الأسباب،
بل تعقبًا لخطّ له يمين ويسار،
بل ممال محرّف من درجة أخرى،
يعلّمنا أكثر مما تفعل الخرائط على الجدار
المملّط، واليد المرفوعة بالسؤال، يرد إلينا العافية
دون أن ندلي باعتراف عن العلّة. جميع المواضي
هي الآن ماض واحد، عبر، رغم أن بعض المواقع
تقدمت، مطلة على ثمة مشهد جديد؛
إن المستقبل سيفي بيمين فيها يقين أكثر.
لا بالابتسام للملكة عبر حافة الكأس
ولا بصنع البارود في عليّة البيت
لا بالانسلال، ساكنًا كالنوارس، على سطح الماء
بل بالغرق المطوّل ستنمو له الغلاصم.
ولكن ما تزال هناك، لكي تغوينا، مناطق لم نرها
بسبب العواصف الثلجيّة أو شارة مغالطة لأعاجيبها
المخفّنة
جدارة بالادعاء، وتذكر سعرًا كاذبًا لمبيت ليلة،
شريطة ألا يرتبطوا، للمسافرين أن يناموا في
الحانات،
ينامون ليلة واحدة، لا يطلب إليهم فيها أن يلمسوا،
لا يتلقّون الترحيب المعتاد، ولا الشفة المزمومة
أو أطفالًا يرفعونهم، أو أحضانًا مريحة،

وبعد اجتياز المعبر يهبطون مع الجدوال الدائب الجريان

أكثر تعبًا من أن يسمعوا شيئًا سوى همدرة النبض

واصلين إلى قرى يسألون عن سرير ليلة،

السماء تخفيها صخرة عن الأبصار،

والحياة القديمة أشرفت على النهاية.

أوقفوا جميع الساعات

أوقفوا جميع الساعات، واقطعوا حبل التليفون
امنعوا الكلب من النباح بعظمة شهية،
اخرسوا البيانو وعلى ايقاع طبل مخنوق
احملوا التابوت الى الخارج، دعوا النادبين يأتوا.

دعوا الطائرات تحلقّ وهي تئن فوق الرؤوس
كاتبة على السماء رسالة تقول (إنه مات)
طوّقوا بأشرطة الكريب أعناق حمامات الساحة،
وليلبس شرطة المرور قفافيز قطنية سوداء.

لقد كان شمالي، جنوبي، شرقي، وغربي
كان أسبوع عملي وأحد راحتي
ظهيرتي، منتصف ليلي، كلامي، غنائي.
كنت أظن الحب يدوم إلى الأبد، لكنني أخطأت.

لم أعد أرغب في النجوم الآن، اطفئوها واحدة واحدة
احجزوا على القمر وانزعوا من مكانها الشمس
اهدروا مياه المحيط واكنسوا من أشجارها الغابة
فلا خير يرجى، من أي شيء الآن.

المخلوقات

إنّهم ماضينا ومستقبلنا. القطبان اللّذان تنطلق رغبتنا بينهما بلا توقّف.

رغبة يعارض الحب والكراهية بعضها فيهما بكمال يجعلنا عاجزين عن الحركة
بمخص مشيئتنا، بل إننا ننتظر الحتمية الخارقة للزلزال وللطوفان.

إنّ مشاربهم ولا مبالاتهم كانت دليلًا للطغاة والمصلحين.
ظهورهم المتكرّر وسط أحلامنا عن الآلا ت، زوّدنا برؤيا أحقاب خرافية وعارية.

أيتها الكبرياء الحقودة على خيرنا هكذا.
بيد أنّ ما أخذته كبرياؤهم، يمكن لنا عن طريق الخير أن نستعيده بسخاء أشدّ.

ريلكه

عندما تؤكد كلّ وسائل الإعلام
انتصار أعدائنا علينا.
معاقلنا مسبيّة، جيشنا منهزم
والعنف ناجح مثل وباء جديد
والضيم ساحر مدعوّ في كل مكان،
عندما نندم لأننا، ذات يوم، ولدنا.
دعونا نتذكّر كلّ من دهمه الهجران.
الليلة، وأنا في الصين، دعوني أفكّر بواحد من هؤلاء.
كافح عبر عشر سنوات من الصمت وانتظر،
حتى قيض لكل ملكاته ان تتفوّه في «برج موزوت»
وأعطي كل شيء مرة الى الابد.
وبامتنان من اكتمل
خرج في ليل الشتاء ليربت
على ذلك البرج الصغير كأنه حيوان كبير.

رحلة إلى آيسلندا

كل مسافر يصلّي «دعني أكن بمنأى
عن أيّ طبيب»، وللموانئ أسماء تخصّ بها البحر
أما الأسى، ذلك الآكال، فلا مدينة له
والشمال نكرة في عرف الجميع.

هذه البطاح إلى الابد مكان تصاد فيه المخلوقات الباردة
ومن كل جانب تندلع مرفرفة أجنحة بيضاء،
يمكن لعاشق الجزر أن يرى أخيرا
تحت الراية الموبّخة،

أمله المحدود، أو مخطّطًا له، بينما يقارب
بريق الثلاجات القطبية والجبال العقيمة الهشة المتوثرة
في النهار الشاذ لهذا العالم، وحجيرة نهريّة
لها شكل مروحة في الرمال.

إذًا فليجد المواطن الصالح هنا، بعض أعاجيب الطبيعة.
أخدود كنعل حصان، تيّار بخار
ينبع من شقّ في الصخر، وصخور، وشلالات
تمسّد الصخور، وبين الصخور طيور.

ولدارس النثر والسلوك أن يجد أماكن للزيارة.
موضع كنيسة وضعوا الأسقف فيه
داخل كيس، مغطس مؤرخ عظيم، قلعة
كان فيها هارب من العدالة يرهب الظلام.

تذكّروا الرجل الذي ادركه حتفه
والقى به حصانه الجامح عندما صاح: «ما اجمل السفح،
لا أريد الذهاب» والعجوز التي تعترف: «ذاك الذي أحببته
أحسن الحب، كنت الأسوأ بالنسبة إليه».

لأن أوربا غائبة. هذه جزيرة ولذا
فهي ملجأ، حيث يمكن لعواطف الموتى أن يشتريها
من تتهمهم أحلامهم بأنهم، نكاية، أحياء
والذين شحبوا من شدة العاطفة.

اثناء التقبيل، يشعرون بالنقاء في صحاراها.
لكن هل يمكنهم والعالم كما هو، والحاضر والأكذوبة؟
الجسر الضيق فوق التيار
والمزرعة الصغيرة.

تحت رف الصخور، هما الموضعان الطبيعيان لخيرات إقليم.

قسم ضعيف على الوفاء يؤخذ عند معلم الحجارة
وفي الهيئة اللامتجانسة التي تمتطي جوادًا
على الطريق الشامخة بجوار البحيرة

الدم أيضًا يتقدم بوصات متعرّجة ومختلسة
سائلًا أسئلتنا كلها. اين الثناء؟ متى ستسود العدالة؟
من هذا الذي يعاديني؟
لماذا أنا دائمًا وحيد؟

كلا، ليست لزماننا ضاحية مفضّلة.
إنها ليست أسارير محلية، تلك التي
لفتيان يخصهم بالرعاية الجميع.
الوعد مجرد وعد، والبلد الخرافي ناء

إلى درجة الحياد. الدموع تسقط في كل الانهار.
وثانية، يرتدي السائق قفافيزه وفي العاصفة الثلجية
المعشية يباشر
رحلته المميتة، ويهرع ثمة كاتب عائدًا
إلى فئه وهو يطلق العواء.

كما نهواه

هي مدينتنا إذًا، بزرائب للفقراء
تنزل حتى حافة النهر، كاتدرائيتها، مكائنها، كلابها،
ها هوذا الطبيخ العالمي
وأشابات المعدن الخفيفة، والزجاج.

شيّدها ذوو الضمائر المتلمة،
صانعو السلاح، نحن. الإشاعات القاتلة
تغوي الجماهير وترعبها، ترعبنا. يبتزّنا الخونة
ويرعدون مهدّدين، لكن أين «هم» الآن

هم الذين أرونا، بلا عتاب، ما اختاره غرورنا
من طاردوا الفهم بصبر كأنه عضو تناسلي
وتعلّموا أن ينسوا أحقادنا
ثم أداروا وجوههم نحو العالم الأفضل حقًا؟

من يدري؟ ها هي الوجوه الفائرة والعنيفة
نشوانة، والحيوات المحمومة بانحيازاتها لا تبالي
وقد أضاعت صوتها في عجيج النحاس اللامع
لتراجعنا العظيم

وفي خديعة الموت. لأن ورقة الميسر المشؤومة أفردت
وعالم النبات المنحوس ذو القبعة الشاهقة

ينحني عند النبع بانبيقه التافه
ويطلق الطاعون على البلدة الجاهلة.

المرؤوسون، والأتباع الذين يرثى لحالهم
تحت ظلالهم ينامون. القمر اعتياديّ. يتلامس العاشق الضروريّون.
وعبر سنين من البرد المطلق

تندفع الكواكب نحو «ليرا» هاجمة كالأسود.
هل يمكن للحقد أن يكون رباطًا وثيقًا هكذا؟
هل مات من هنا؟ أجل. وللرغبة في التجريح مقاليد الأمور.
والغد يأتي. إنه عالم. إنها طريقة.

إيضاح

طلب مني الناشر قراءة ترجمة الراحل الكبير سركون بولص لقصائد مختارة من أشعار أودن، من أجل تزويد النص بعناوين القصائد الأصلية بالإنكليزية، وتثبيت المعلومات التي تسهّل على القارئ الرجوع إلى الأصل عند الحاجة. وفرحتُ بالطبع لما أكنّه من إعجاب ومحبّة لسركون، كشاعر كبير، ومترجم متميّز، أغنى المكتبة العربية منذ عقود.

لقد اعتمدت في مهمتي على مجموعة الأشعار الكاملة لأودن التي حرّرها إدوارد مندلسون ونشرت لأول مرة عام ١٩٧٦، وأعيد نشرها مذاك، وهي الأكثر موسوعية وشمولًا، فتكاد تصل إلى ألف صفحة. لقد وضعت عناوين القصائد بالإنكليزية، وأرقام الصفحات والمراجع في نهاية الكتاب. هناك بعض القصائد المبكرة التي لم يعد أودن نشرها في مجموعاته فيما بعد، والتي لا تظهر في مجموعة الأشعار الكاملة، أو التي وردت في مقاطع من مسرحياته، وقد ثبتّ مصادرها أيضًا. أما الترجمة نفسها، فجاءتني مصفوفة بالحاسوب ومطبوعة بالآلة الكاتبة وأحيانًا بخط سركون، وباستثناء تصحيح بعض الأخطاء الطباعية، فقد أبقيتها كما هي.

سنان أنطون

المصادر[1]

المسعى

.The Quest, pp ٢٨٣-٢٩٧

مشهد بحر

.On This Island, p ١٣١

متحف الفنون الجميلة

.Musée des Beaux Art, p ١٧٩

العاصمة

.The Capital, pp ١٧٧-١٧٨

إنحيازُنا

.Our Bias, p ٢٧٥

نحن أيضًا عرفنا ساعات ذهبيّة

.We Too Had Known Golden Hours, pp
٦١٩-٦٢٠

أغنية ليوم الحساب

.Doomsday Song, pp ٢٦٧-٢٦٨

الرّقباء

(S) ٦٤-٦٣ .The Watchers, pp

إسبانيا

(S) ٥٧-٥٤ .Spain, pp

شاهدة على قبر طاغية

١٨٣ .Epitaph on a Tyrant, p

في ذكرى و. ب. ييتس

٢٤٧-٢٤٥ .In Memory of W. B. Yates, p

السفينة

١٧٤ .The Ship, p

سفارة

١٩٢-١٩١ .Sonnets from China, XC, pp

شاعر القبيلة

١٨٧-١٨٦ .Sonnets from China, VII, pp

رامبو

١٨٢-١٨١ .Rimbaud, pp

فولتير في «فيرني»

٢٤٨-٢٤٩ .Voltaire at Ferney, pp

لوثر

٢٩٨-٢٩٩ .Luther, pp

شاهدة على قبر الجندي المجهول

٥٦٨ .Epitaph for the Unknown Soldier, p

«المسافر» و«فرضيّة عقلانيّة مسبقة»

من مسرحية «الكلب تحت الجلد»

W. H. Auden, Two Great Plays; Dog Beneath the Skin & Ascent of F٦ .Modern Library, ١٩٣٦

درع آخيل

٥٩٤-٥٩٦ .The Shield of Achilles, pp

أسلاك شائكة

٥٩٢-٥٩٣ .Barbed Wire, pp

نصب تذكاري للمدينة

(S) ١٩٦-٢٠٠ .Memorial for the City, pp

مثل مهمة

٢٥٤-٢٥٥ .Like a Vocation, p

رحلة البحر

١٧٤ .A Voyage, p

القانون الخفي

٢٦٢ .The Hidden Law, p

عصر جديد

١٨٨ .A New Age (Sonnets from China), p

الدرس

٢٢٥ .The Lesson, p

اقفزي قبل أن تنظري

١٢٥-١٢٤ .Leap Before you Look, pp

جزر

٥٦٢ .Islands, p

وحد

٣١٠ .Alone, p ٥

المتسلقون

١٢٤ .Two Climbs, p

أسرار

٦٢٠ .Secrets, p

عالم شارف النهاية

(١٩٣٣ ,January ,١ .Song (New Verse, no

عندما خرجت للنزهة ذات مساء

١٣٥-١٣٤ .As I Walked Out One Evening, pp

سقوط روم

٣٣٠ .The Fall of Rome, p I

السيدة الباكية على مفترقات الطرق

٢٧٧ .Lady Weeping at the Crossroads, p

آه ما ذلك الصوت

١٢٠ .O What Is that Sound, p

ميناء رئيسي

١٧٧ .A Major Port, p

سوء تفاهم

١٢٥ .A Misunderstanding, p

بروكسل في الشتاء

١٧٨ .Brussels in Winter, p

مونتين

٢٩٩ .Montaigne, p

الشمس تشرق على المراكب في البحر

,The Sun Shines Down (On This Island

(١٩٣٦

في زمن الحرب

In Time of WarIn Time of War, Random

٤-٣ .pp ,١٩٤٥ ,House

الموسيقار

١٨١ .The Composer, p

الرحلة

To Throw Away the Key and Walk Away,

١٨ .p

أوقفوا جميع الساعات

١٤٢-١٤١ .Stop All the Clocks, p

المخلوقات

(In Another Time (Creatures

ريلكه

(S) ٨٣ .In Time of War (xxiii), p

رحلة إلى آيسلندا

١٥١-١٥٠ .Journey to Iceland, pp

كما نهواه

٢٧-٢٥ .As We Like It, On this Island, pp

---

1 معظم القصائد مأخوذة من:

W. H. Auden, Collected Poems, ed. Edward Mendelson, (New York: Vintage ,٢٠٠١).

أو:

W. H. Auden, Selected Poems, (Expanded Edition) selected and edited by Edward Mendelson, (New York Vintage ,٢٠٠٧).

وتشير إليه بحرف (s)